بسم الله الرحمن الرحيم

١٥٢٧م

مسلمو العالم والغرب

جيوبولتيك الإحتقان

الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية نموذجا

د. سمير سليمان

سليمان، سمير
مسلمو العالم والغرب: جيوبوليتيك الإحتقان – الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية نموذجا»/ تأليف سمير سليمان. – – قمران: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية، المعاونية الثقافية، ١٤٢٧ق. = ٢٠٠٦م. = ١٣٨٥.
١٥٢ص.
ISBN 964-8889-50-3
فهرستنويسى براساس اطلاعات فيپا.
عربى.
١. مسلمانان – – كشورهاى غير اسلامى. ٢. اقليتها (اسلام) – – كشورهاى غربى. الف. مجمع جهانى تقريب مذاهب اسلامى. معاونت فرهنگى. ب.عنوان.
BP ٢٩٧/
١٣٨٥
كتابخانه ملي ايران ٨٥م

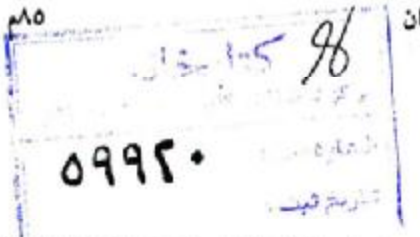

اسم الكتاب: مسلمو العالم والغرب: جيوبوليتيك الإحتقان
الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية نموذجا
المؤلف: د.سمير سليمان
الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية،المعاونية الثقافية
الطبعة: الاولى – ١٤٢٧ هـ.ق ٢٠٠٦ م
الكمية: ١٠٠٠ نسخة
السعر: ٨٠٠٠ريال
ردمك: ٣-٥٠-٨٨٨٩-٩٦٤
العنوان: الجمهورية الاسلامية في ايران / طهران
ص . ب : ٦٩٩٥ – ١٥٨٧٥
تلفكس: ٤-٨٨٣٢١٤١١

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الفهرس

المواضيع	الصفحة
المقدمة	٧
الفصل الاول في مقدمات ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية	١١
الفصل الثاني في الاسباب المضافة للظاهرة	٢٥
الفصل الثالث في ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية وردات الفعل	٥٣
الفصل الرابع في دورس و عبر الرسوم الكاريكاتورية	٧٣
الفصل الخامس الرسوم وردات الفعل الفلسطينية . النموذج الفلسطيني المؤتلف و المختلف دائما	٩٧
الفصل السادس قراءة في مستقبل العلاقة بين مسلمي العالم والغرب في ضوء تجربة الرسوم الدانمركية	١١٣
فهرس المصادر والمراجع	١٤٨

مقدمة

مرايا الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية ماذا تقول؟

لمَ المكابرة؟! ها هو العالم اليوم عالمان من جديد[1] إذْ يُرى إليه بمنظور جيوبوليتيكي واستراتيجي وحضاري يتبدى فيه الظاهر خطوط تماس وأخاديد وفواصل متعرجة بين الأمم والشعوب والدول، ما كان منها دولة، أمة، وما لم يكن. أما بالاستبطان والرؤية إلى ما تحت الظاهر أو دونه فنعلم أن العالم / العالمان هذا، هو مركب كسور وندوب وأرقام من العوالم المعقدة والمتداخلة التي قد يتفق الناس حول تصنيفها أو فهم تفاصيلها وتناقضاتها أو مشتركاتها أو خصوصياتها أو تميزاتها، لكنهم غالباً ما يختلفون فيها ويفترقون فرقاً وينتحلون نحلاً. والفِرَق والنحل مطية الإحَنِ كما ينبيء بذلك تاريخ الإنسان.

ليس لكل باطن ظاهراً مباشراً – تقول وجهات نظر هي موضع نظر،

---

١ – أنظر: هاغمن، لودفيغ – «مسيحية ضد الإسلام – حوار انتهى إلى الإخفاق» ص ١٦٥ وما بعدها

وإلا ما كان باطناً. لكن له بالأقل ظاهراً رمزياً ينطق به أو يُنْطِقُهُ أو يوحي بوجوده، وإلا فهو مجهول غير معلوم.

بهذا المعنى يصلح أن يُقرأ العالم بالظاهر البسيط الدال الذي لا يكون من غير مدلول. ولا يكون دال ولا مدلول من غير دلالة كما هو معروف.

هكذا يُقرأ العالم عالمين من غير أن تنفي قراءة الثنائية قراءة التكثر أو قراءة التداخل أو أن تنقضهما. والعكس صحيح أيضاً.

إن العوالم المتكثرة هي خلايا رأينا إليها في تاريخ البشرية عند التحولات والمفارق كيف تنشطر وتتكتل في ثنائية جسمانية استراتيجية أو ايديولوجية أو جيوسياسية، أو كيف تأتلف في هذه كلها.

بمعيار الفعل: صحيح أن كلاً من طرفي الثنائية البسيطة التي انشطر العالم فيها ليس حالة كيانية متجانسة قُدّت في قالب واحد. ففيه السالب والموجب، وفيه القضية وعكسها، وفيه الأشباه والنظائر كما المغاير، وفيه المؤتلف والمختلف. إلا أن الأمر بمعيار الإيديولوجية السياسية أو سياسة الايديولوجيا يبدو على غير ما ينبيء هذا الباطن المتداخل عندما يتعلق الأمر بالإسلام السياسي، وحتى بالإسلام الديني أحياناً. فنظرة كل من طرفي الثنائية إلى الآخر لا تسبح تحت مياه الجواني ولا تأخذ به، إنما ترى إليه «غشتالتياً» فإذا هو غير الآخر، أو كذلك يتوهم، أو كذلك يريده أن يكون. عند ذاك تملأ الجفوة الفراغ الفاصل الحاصل بين الطرفين، وتزيد «البارانويا» في مَدِّ هوة الخوف والتوجس والتكاره والتباعد حتى حدود القطيعة، بل إلى حافة هاوية العداء المستحكم.

لا يقولنَّ أحدٌ، من قبل أو من بعد، إنا نسينا أو أهملنا طرفاً ثالثاً (أو أكثر) يُحتمل وجوده بين طرفي الثنائية أو خارجهما. لأننا ندرك صحة هذا الوجود العيني ونعرف تأويلاته ورموزه وخطابه العقلاني.

إلا أننا بحساب القدرة وموازين القوى وفاعلية التأثير وبحساب عصبيات الإصطفاف وتمركزها نحسبه، فما نجده إلا نخبوياً أو مستضعفاً أو مغلوباً على أمره – وعلى غيره أيضاً –، وذلك برغم أهميته على مستوى النوع وكذلك على المستوى الإستراتيجي.

الضجة الكبرى التي أنتجتها ردات الفعل العالمية على الرسوم الكاريكاتورية التي نشرتها جريدة «JYLLANDS – POSTEN» الدانمركية في أيلول ٢٠٠٥[1]، هي مصداق انشطار العالم وقد ذُهِب به كلَّ مذهب.

١ – في ٣٠ أيلول ٢٠٠٥ نشرت صحيفة (JYLLANDS – POSTEN) الدانمركية اثني عشر رسماً كاريكاتورياً للنبي محمد (ص) اعتبرها المسلمون في العالم مسيئة ومهينة لمقدساتهم. وعندما حاول أحد عشر سفيراً لدول مسلمة في الدانمارك لقاء رئيس وزرائها للاحتجاج، رفض الأخير استقبالهم مما أثار حفيظة السفراء وتنديدهم بموقف رئيس الوزراء في ١٩ تشرين الأول /أكتوبر ٢٠٠٥. على أثر ذلك انفجرت احتجاجات عارمة في شتى البلدان كان لها وما يزال تداعيات هامة جداً.

الفصل الأول

في مقدمات ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية

في مقدمات ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية

ليس ما سمي بـ «الرسوم الكاريكاتورية» المسيئة للنبي (ص) ولمقدسات المسلمين التي أقامت الدنيا حدثاً ابن ساعته، أو ظاهرة معزولة متقطعة في الزمان والمكان. فمن يتابع ما يحدث في الغرب أو يعيش بين ظهرانيه ويطلع على ما كتب ويكتب، وعلى ما نشر وينشر عن الآخر المسلم واعتقاداته وحياته، من القصاصات والنشرات الدعائية إلى حركة التأليف الأكاديمي والصحفي، وصولاً إلى وسائل الإعلام والأنشطة الفنية والأدبية، إلى الإنترنت... من هو في هذا الموقع، لا يخفى عليه أن الرسوم الكاريكاتورية المشار إليها ليست سوى رأس جبل الجليد .

تماماً كما كانت الحال مع كتاب «الآيات الشيطانية» لسلمان رشدي الذي استدعى الفتوى التاريخية للإمام الخميني (قدس سره). ولكنْ لماذا استثارت الرسوم الكاريكاتورية كل هذه المفاعيل وردات الفعل على جميع المستويات ولمَ كل هذا السجال الذي اندلع في العالم ولـمَّا تنتهِ فصوله بعد، وبخاصة في الشطر الغربي منه؟ ولمَ في هذا التوقيت بالذات؟..

كما في كل ظاهرة بهذه الأهمية، ثمة مقدمات وتمخضات هيأت لتكوُّنها وإنضاجها ذاتياً وموضوعياً لِتُستولَدَ في لحظة دانية تكاد تكون حتمية.

لم يكن للعالم بعد انكفاء الحرب الباردة واتجاه النظام الدولي إلى الإرتماء في قبضة المنتصر الإيديولوجي والثقافي والسياسي والإقتصادي وتقدم الديمقراطية الليبرالية ومنظوماتها لملء الفراغ الكبير الذي خلفته الماركسية التي أطيح بها، لم يكن للعالم والحال هذه إلا أن يستسلم لأحادية قطبية غربية بقيادة أميركية إمبراطورية[١] أفقدت العلاقات الدولية الحد الأدنى من التوازن الذي كان قائماً.

قبالة هذي الإندفاعة التي باتت شبه مطلقة الحركة في كل الإتجاهات والتي اعتبرها فرانسيس فوكوياما نهاية للتاريخ، وهو جذلان بمفاعيل دوار الغلبة المتحققة ثم استفاق منها لاحقاً[٢]، ومع إرهاصاتها وتباشيرها

---

١ - أطلق عليها جان زيغلير تسمية: «امبراطورية العار» التي تحكم العالم بشراكة اقطاعية وتكامل بين الهيمنة الاقتصادية الهجومية والآلة العسكرية الغربية الهائلة. «وامبراطورية العار» هو عنوان لكتابه الأخير الذي يعرض فيه نظرته المقلقة إلى مستقبل العالم الذي تقوده حفنة من البيروقراطيين الكونيين الذين يمثلون مجموعة من خمس مئة شركة تسطير على الإقتصاد العالمي المعولم الذي تسعى الولايات المتحدة وأوروبا إلى فرضه على العالم بالقوة والتجويع (Voir: ZIEGLER, Jean- «L'empire de la honte»)(وانظر أيضاً مقابلة معه منشورة في جريدة «السفير» - بيروت، ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠٦).

٢ - تراجع فوكوياما عن بعض اطروحاته التي أودعها كتابه الشهير «نهاية التاريخ» إلى درجة اعتبار الكتاب كله مجرد «نقاش حول الحداثة ونوعاً من الحجة الماركسية لوجود عملية طويلة للتحول الإجتماعي، لكنها عملية تنتهي بالديموقراطية الليبرالية بدلاً من الشيوعية» حسب قوله - (انظر كتابه: «State building». لا سيما منه ص ١٤٩/ وما بعدها، وانظر دراسته المنشورة في مجلة «نيويورك تايمز ماغازين» في عددها الأخير، وقد نشرتها معربة جريدة السفير - بيروت - عدد ٢٤ شباط /فبراير ٢٠٠٦).

الأولى، كانت الثورة الإسلامية في إيران قد أصبحت حاضرة في قلب الصورة المشهدية للعالم كأحد أهم ممثليها، وحَلَّ المشروع الحضاري الإسلامي الذي احتضنته ودعت إليه في المخيال الإستراتيجي المنتصر كغريم موضوعي وبديل عن الشيوعية.

وسرعان ما تحول مشروع الإستنهاض الإسلامي هذا إلى الحصاة التي كسرت بالتموجات غير المتناهية التي أحدثتها سكونية مياه العالم الإسلامي التي كانت راكدة على مدى قرون، ذاهلة عن سبيل تمرد وانعتاق، مضروبة بحيرة البدائل والخيارات الإيديولوجية الوطنية أو القومية وتلك المتعلقة بالهوية أو الأممية... «والماء فوق ظهورها محمول».

كان من الطبيعي، في ضوء هذا التحول الإستراتيجي[1]، أن يصطدم المد الغربي المعولم والمترع بالعسكرة دائماً، وقد توهم أنه أضحى بلا ضوابط أو كوابح، بخطوط الدفاع الإسلامية المستجدة والتي راحت ترتفع تدريجياً بعدما كان قد اعتاد اجتياحها من غير عوائق.

منذ ذاك، استعاد العالم انشطاره.. ولكنْ بدالٍ ومدلول ودلالة مختلفة عن سيرتها الأولى، ولم تكن القوى بين العالمين متكافئة بطبيعة الحال، فحققت الإندفاعة الطوفانية للغرب وحلفائه الكثر اختراقات كبرى في جبهة الدفاع على الضفة الأخرى، وهي ما فتئت تشكو من نقاط ضعف مركبة وتاريخية، ومن خاصرة رخوة لا يصعب هتكها والنفاذ من خلالها.

1 - Voir: Huntington, Samuel - «Qui Sommes – nous?» - p.p 253 et apires.

وكان أن طرأ حدث جلل جديد تجلى في وقعة الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ التي كانت تحولاً استراتيجياً بكل المعايير بين العالمين الغربي والإسلامي إذْ كرست حدود الإنشطار المتراكمة بينهما ورسختها من جانب، ورفعت مستوى التأزم العلائقي وحالة التوتر الذاتي والموضوعي بين الطرفين من جانب آخر، فاشتدت محفزات ودوافع الإستقطاب بينهما وارتفعت حرارة الضغط الهجومي الغربي على الطرف المسلم سياسياً واقتصادياً ودبلوماسياً إلى حدودها القصوى، ثم من خلال الهجوم العسكري الإستعماري المباشر، وذلك تحت شعار «الحرب المباشرة والوقائية على الإرهاب الإسلامي»، فاحتلت أراضي بلدين اسلاميين (أفغانستان والعراق)، كما جرى ويجري تهديد غيرهما بالتدمير أو الغزو، واسترجعت الجيوش الأجنبية حضورها الاستراتيجي المباشر في قلب العالم الإسلامي والعربي بمفاعيل تجزئة سايكس - بيكو وبما يذكر بنتائج وتداعيات تشكل الدولة الصهيونية في فلسطين عام ١٩٤٨، وحوصرت بلدان إسلامية أو باتت في موضع الحصار، وامتدت الهيمنة الأميركية من أرخبيل الملايو إلى المحيط الأطلسي، عدا بؤر ممانعة يجري استكمال تطويقها ومحاولة تطويعها وتشتيت قابليات مقاومتها لهذا الهجوم الغربي الشامل، وذلك بالوسائل كافة بدءاً من استخدام القوة إلى أمضى أسلحة التشويه الثقافي والإعلامي، والحضاري والإنساني، تكاد لا تسلم من هذه الحرب المعلنة الشاملة بقعة من بقاع الأرض فيها للمسلمين وللإسلام وجود، بينما تطلق يد اسرائيل في البطش بالشعب الفلسطيني وتجويعه،

وتستباح دماء المسلمين في الباكستان وأفغانستان والعراق والفيليبين وغيرها، وتمتلىء سجلات القضاء في الغرب بأسماء المتهمين أو المشبوهين المسلمين، وتراقب حياة وأنشطة وأعمال وهواتف ومدارس وأندية المسلمين هناك وتحصى عليهم أنفاسهم وتستباح حساباتهم المصرفية بالتدقيق والمساءلة، حتى أمست حياتهم مثقلة بالعسف والاضطهاد والمضايقات من كل نوع وفي كل مناحي حياتهم، إلى أن وصل الأمر إلى مستوى التهديد الأمني في بعض الأحيان.

حتى حجاب المسلمة وما يرمز إليه من قيم[1]، تحول في العالم الغربي – كما بات الجميع يعرفون – إلى مكروه أو محرم يستدرج التنديد والتهويل بـ «أخطاره» على الهوية الوطنية، والوحدة الوطنية تُستصدَر ضده قوانين المنع، وتستسهل السلطات القضائية خطره هنا وهناك باعتباره «رمزاً» دينياً، وتوصد في وجه من اخترنَهُ بملء إرادتهن وكامل حريتهن أبواب التعليم والعمل.

والأخطر من ذلك كله أن المخيال الغربي العام قد جرى تذخيره بعد الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، وفي ظل حمى الحرب على الإرهاب المصَعَّدة إلى الأوج، بضخ دعاوي هستيرية استكنَّ الوعي واللاوعي منه بحيث لا يُرى إلى الدين الإسلامي إلا مُعادِلاً للإرهاب، ولا ينظر إلى

١ – خرجت قضية الحجاب إلى العلن في فرنسا في أيلول ١٩٨٩، بعدما أصرت ثلاث تلميذات في مدرسة ثانوية فرنسية على ارتداء الحجاب داخل المدرسة.. ومنذ ذلك الحين وقضية الحجاب في الغرب قيد التجاذب.
(انظر: نيلسن، يورغن – «المسلمون في أوروبا» – ص ٢٦١–٢٦٤.

المسلمين إلا باعتبارهم على وجه العموم منتجين للإرهاب أو أنهم ارهابيون بالقوة أو بالفعل، وكأنما الأمر كما في المعادلات الرياضية.

أما مقاومة المسلمين للإحتلال الإسرائيلي، كما المقاومة في فلسطين ولبنان مثلاً، وهي حق شرعي ومشروع، فما أسرع أن ترمى بالحرم المطلق أو بتهمة الإرهاب، وبالمعيار نفسه أيضاً:

المقاومة = الإرهاب

وأما عبادة الجهاد (الذي أطلقوا عليه تسمية الحرب المقدسة تنفيراً من مضمونه الديني وزعماً منهم أن لا حرب مقدسة وفيها ما فيها من الكره والمكاره).. أما هذه العبادة وهي من أشرف العبادات الإسلامية مع قرينها: الإستشهاد (وقد أضحى في خطابهم انتحاراً) فقد جرى تبخيسهما والتهكم على مضامينهما السامية كأن ينسب الإستشهاد / (الإنتحار) إلى مقاولة / صفقة مادية يريد الشهيد / (الإنتحاري) من خلالها تحقيق (ربح/ربح) مادي في الدنيا والآخرة، بحيث يجري تسليط الضوء على ثمن الشهادة وعلى مقابلها ومكافأتها، مع إغفال متعمد أو غبي لقضية الإستشهاد نفسها.

عن سابق تصور وتصميم تعمدت المؤسسة السياسية الغربية، والأميركية منها بوجه أخص، ومدعومة بالآلة الهائلة للأجهزة التابعة لها أو الواقعة تحت تأثيرها، المبالغة والتهويل من الأخطار المزعومة والمفرطة التضخيم لارتكابات وتهديدات جماعات محدودة من الإسلاميين المغامرين ضدَّ ما سموه: الأمن القومي للبلدان الغربية وأمن مجتمعاتها وقيمها.

ذلك كان دأبها من بعد في الدعاوى والحرب النفسية عندما نسبت للإسلاميين الأفغان قدرات هائلة مزعومة وصورتهم بنموذج متوحش وبربري وقروسطي لتبرير غزو أفغانستان واحتلالها.

وللدفع إلى ذات الهستيريا تمَّ حقن الرأي العام الغربي أيضاً بهدف التحريض والتعبئة ضد العراق تمهيداً للإجهاز عليه وإسقاطه. وكذلك تهيأ الأرض حالياً للإطباق على ايران بحجة سعيها للحصول على أسلحة الدمار الشامل.

لقد جرى دسَّ مصطلح «هجوم» (Attaque) لتوصيف اعتداء الحادي عشر من أيلول، عن تعمد وذلك لوضع الردات العسكرية وغير العسكرية عليه في مصاف «الدفاع» المشروع عن النفس (Auto – defense) لقلب الأدوار والظهور بمظهر الضحية واستدرار تأييد الرأي العام ودفعه إلى الهلع وتقبل أوزار الحروب الآتية ومستلزماتها كافة بذريعة، بل بذرائع، مفرطة في المبالغة والتضخيم والتلفيق.

لم يكن ما حدث في نيويورك يوم الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ «هجوماً» كما يردد الكثيرون في مغالطة مضحكة، إذْ ليس هو في القراءة العقلانية سوى غارة محدودة قام بها وخطط لها غلاة ومغامرون بحسابات سياسية مغلوطة وبردة فعل على ظلم واستغلال غربيين مستفحلين هما أساس نشوء تراجيديا الإرهاب والإنغلاق على الذات.

فلا يجوز بأية حال احتسابه «هجوماً للإسلام على الغرب»، فلا الذين هاجموا هم الإسلام ولا هم يختصرون المسلمين، ولا البرجان النيويوركيان هما الغرب، مأخوذاً بالجملة وبالمفرق.

في مسار الخلل العلائقي الطويل والمستحكم بين العالمين الغربي والإسلامي، وفي ظل عدم التوازن في القوى المادية المستمر منذ قرون، لطالما كان المسلمون في وضع من ظهره إلى الجدار فعلاً، وفي وضع المتلقي أو المدافع لا في وضع المبادر المهاجم. وعلى هذا، لا نعتبر ردات المسلمين في العالم على انتهاكات الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية، هي أيضاً، «هجوماً» كما حلا للبعض أن يسموها. فما هي في رأينا إلا مجرد حركة موضعية مقيدة بحدود الاعتداء الذي تعرضت له بعض مقدسات المسلمين. ولو كانت غير ذلك، وليته كان، لكانت الدنيا غير الدنيا.

إذْ نرى إلى ذلك كله، فإننا لا نجهل البتة أن الغرب ليس واحداً إذ قريء بمعيار علاقته بمكوناته أو علاقته بذاته وأن في تضاعيف العالم الغربي الذي وصفناه ثمة تيارات فكرية ودينية وإنسانية قوى مجتمعية حية مشهودة ومشهورة تطير خارج سرب الاستكبار الغربي، كما أننا لا نغفل عن وجود تناقضات سياسية ومصلحية دولتية أو اقليمية أو عالمية ذات طابع وتأثير مؤقتين بين دول الغرب نلحظها بين الفينة والفينة.

نعرف أيضاً أن النظرة إلى الغرب باعتباره وحدة كيانية متراصة وكتلة مجتمعية وسياسية صماء، هي فرضية تتضمن كثيراً من الدواعي التي تحرض على نقدها من غير كبير عناء، كما تشرع الأبواب أمام منتقديها ليتهموها بالدوغمائية والتبسيط أو التفسير الإيديولوجي.

نباهة تسجيل النقاط النقدية هذه التي يتقنها بعض الأكاديميين والمحللين الموطين بالتنقيب عن الفروقات والمفارقات التفصيلية، أو المشتركات

والإستدخالات البديهية بين الشعوب وبين الجماعات، لا ننفيها ولا نرفض الكثير من مؤيداتها.

السؤال الذي طرحه بعض المنظرين الإستراتيجيين الأميركيين والأوروبيين: لماذا يكرهوننا؟ هو سؤال قد يبدو من جهة الكارهين ساذجاً وصبيانياً. لأن هؤلاء يعلمون أن المشكلة ليست أخلاقية وليست في التكوين الجيني، وإنما هي حضارية بامتياز، منها يستولد السياسي. أما إذا قوربت الإجابة من جهة المكروهين فستكون من باب «تجهل العارف»، مهما اصطنع لها من أشكال البراءة المتعلية وحسن النية المزيف. فغسل اليدين من دماء الصّديق، حيلة معروفة.

ولو طرحنا السؤال بطريقة تعكس فيها الكاره والمكروه ليغدو المسلمون هم المتسائلين: لماذا يكرهوننا، وهم موضوع الكراهية فعلاً هذه المرة؟، فإننا نعتقد بأن الإجابة عندئذ لن تكون في جوهرها إلا حضارية ايضاً، وليس ظاهرها السياسي سوى رمز لتصور حضاري ورؤية حضارية أصلية.

ولا برهان أدل على صحة هذا الإنتساب الحضاري للجماعات البشرية والأمم، من النسق العلائقي فيما بينها. فعلى المستوى الكلي والتطور التاريخي، كما مستوى الصراعات والصدامات فيما بينها، لا تعدو هذه الأخيرة كونها ذات منشأ حضاري. وبخاصة عندما تقارب الاستقطابات العلائقية بين المجتمعات بلحاظ أهدافها وغاياتها، ومن خلال علاقتها بغيرها لا علاقتها بنفسها.

بهدي هذه المعايير يتحول الغرب إلى وحدة ثقافية وحضارية واستراتيجية. وكذلك العالم الإسلامي الذي إذا نظرنا إليه بمعيار علاقته بذاته، فلن يُرى إلا متعدداً. اما بالمعيار الحضاري والإستراتيجي، فهو كتلة واحدة، تعدده من ضمن وحدته. وهذي قضية الرسوم الكاريكاتورية مصداق معبر.. إنها إتمامٌ للمتهمين، وبخاصة في تشكل حركة الاستقطاب حولها وحالة الضم والفرز التي أحدثتها.. فإذا التعدد في الغرب مصطف في وحدة حضارية، وكذلك الحال في العالم الإسلامي. ولكل منهما ظاهر لباطن ملتهب يعتمل ويتورم ويَحْتَرُّ منذ عقود.. بل منذ قرون.

في المقلب الآخر أي في الشطر المسلم من العالم المنقسم على نفسه وقبل أزمة الرسوم الدانمركية، كان المسلمون داخل بلادهم ومجتمعاتهم بين مطرقة الاحتلال الغربي والصهيوني وسَنْدان الأنظمة الديكتاتورية التوتاليتارية التي ما انفكت تمسك بأعناق وأرزاق مواطنيها في أكثر بلدان العالم الإسلامي، وهي في معظمها مستتبعة أو ملحقة بالمشروع الإمبريالي الغربي وسائرة في ركابه مبيحة ثروات البلاد والعباد للنهب الاستعماري المنظم. بينما الغالبية الساحقة من مواطنيها يقضقضهم البؤس ويُفقدهم انتشار البطالة المبادرة والرجاء. فيسعون إلى هجرة أهلهم وبلادهم لا يلوون على شيء، وتحاصرهم موانع ومعوقات التنمية الإنسانية والإجتماعية والإقتصادية، وتقطع أوصال اجتماعهم العصبيات والعشائرية والتفاوت الإجتماعي والتناقضات الإيديولوجية والسياسية والمذهبية.

أما آمال الناس بالتغيير والإصلاح والخلاص فمسكونة بهواجس المرارات والإحباطات الإيديولوجية والسياسية لتجارب استنهاضية وانقاذية سابقة عاشوها وشاركوا فيها، أو شهدوا تهافتها في تجاريب غيرهم.

أما ما يبدو للمسلمين بارقة أمل ممكنة في هذه المرحلة فيكاد ينحصر في بعض الحركات الإسلامية الواعدة التي قدمت حتى الآن مصاديق إيجابية على قدرتها على أن تكون بديلاً استنهاضياً وانقاذياً صالحاً بعدما عزَّ وجود بديل تغييري منافس بحجمها الإيديولوجي وثقلها الشعبي وقدرتها على الاستقطاب. إلا أنها في الأعم تشكو من اضطراب في الرؤية وفي أجندة البرامج والآليات القادرة على وضع المبادىء والشعارات موضع التنفيذ. ناهيك بكون هذه الحركات الإسلامية مثقلة بضغوط هائلة من كل نوع كان أخطرها انحراف بعض الغلاة إلى استخدام العنف والإرهاب في الداخل وانزلاقهم إلى التورط في برامج أولويات مقلوبة في الخارج، مما ألحق أضراراً غير مسبوقة بالمشروع الحضاري الإسلامي وحملته، وشوه صورة الإسلام في العالم، وقدمه بأسوأ ما يكون التقديم.

هي ذي الصورة المشهدية للعالم عشية حادثة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية.. وإنه لمشهد مضطرب معمور بانقسام حاد وقلق على الذات والهوية وعلى الحريات والاعتقادات والقيم وعلى المصير. بينما الجسور العلائقية التي يفترض فيها أن تفضي إلى تبريد المحرور وتنفيس المحتقن

وإلى التعارف الإحيائي بين الناس قد أضحت مقطعة الأنياط متهافتة الأركان، معلقة بالأماني التي لا تأتي إذْ ما كان لها، والمخاضات تلك أحوالها، إلا أن تنجب السلبيات مستدعية تراكمات الماضي – المؤلم والأحقاد المخبوءة تحت رماد المجاملات أو الصمت الاضطراري، أو المحمولة على ردات فعل تتلمس الطريق إلى فوهة البركان لتفرغ عَبْرها محمولاتها التاريخية من الحمم والنقم.

أليست السُّحُب السوداء المكفهرة رمزاً لإقتراب عاصف، بل لعصف يَتدانى؟..

الفصل الثاني

في الأسباب المضافة للظاهرة

في الأسباب المضافة للظاهرة

إضافة إلى الفضاء السياسي والانشطار الاستراتيجي العالمي العام والاحتقان المتراكم في كل من العالمين الغربي والإسلامي وفيما بينهما، تضافرت مجموعة من الأسباب الأخرى التاريخية والثقافية والاجتماعية لظاهرة الرسوم الكاريكاتورية لِتَصُبَّ فوق كل سلبية علاقية جرعة فائضة.

بعض هذه الأسباب تختص بالعالم الغربي، وبعضها الآخر هو من صناعة العالم الإسلامي.

أ- على مستوى العالم الغربي:

إذا كانت ظاهرة الارهاب الإسلامي أو الرعب من الإسلام(الاسلامو فوبيا Islamophobie) ظاهرة حديثة نسبياً، وكذلك الحملة المنظمة والشاملة على ما يسمى بـ «الإرهاب الإسلامي» واستفحال آفة العدوانية ضد كل ما هو اسلامي، فثمة ظاهرة أخرى مستدامة لطالما جعلت من

الوعي واللاوعي الغربيين تربة خصبة وجاهزة لتصنيع نمطي ومرجعي لإسلام ما... لإسلام متخيل ومقولب في الذاكرة الجمعية للغرب بوجه عام. لكنه ليس الإسلام الموضوعي، أو بالأقل: هو ليس إسلام المسلمين[1]. هذه الظاهرة المتجددة وغير المنقحة هي: الجهل المركب بهذا الدين، وقدْ راكمته وفاقمته عوامل عدة أبرزها: التأسيس السلبي لبعض الإستشراق الذي ما فتئت تخصبه بعض الدراسات الأكاديمية التي ينشرها مستشرقون، قسم منهم لا يتقن اللغة العربية أو لا يقرأون النصوص الإسلامية بلغاتها بل بترجمات هي الأخرى شوهاء عَثْلاء، يعوّلون على دراسات في الإسلاميات بين كثير منها وبين المنهجيات العلمية حُرُونٌ متأصل. من عوامل ذلك الجهل أيضاً: الفوقية الغربية ذات الأصول الاستعمارية التي مانزال قابعة في العقل الباطن والوعي الظاهر لفئات من الغربيين لا ترى إلى الآخر المسلم بخاصة، والآخر بعامة، إلا على قاعدة التفوق الأبيض على طريقة المؤرخ البريطاني (كيبلينغ). ومن هذا التفوق تتفرع التوليدات الأولى للإيديولوجية العنصرية المستحكمة في جماعات لا يستهان بتأثيرها. من تلك العوامل أيضاً: مؤدى قانون الغالب والمغلوب الذي أبدعه ابن خلدون وهو يقرأ بالمنهج الحضاري علاقة المهزوم بالمنتصر عن طريق الغلبة والقهر العَصَبِيَّيْن. ومنها كذلك النفي الاعتقادي واللاهوتي الكنسي لوجود دين ثالث بعد اليهودية والمسيحية. السياسات

---

١ - راجع كتاب Richard W. Bulliet : «دفاعاً عن مقولة الحضارة الإسلامية - المسيحية» - ص /٢٦و ٢٧ و ٢٨.

الغربية التاريخية المعادية لحقوق العرب والمسلمين والمؤيدة لإسرائيل ثم هناك الصهيونية العالمية....

لقد كان من أمارات هذا الجهل المركب بالإسلام وبالمشروع الحضاري الذي يدعو إليه وبالتاريخ والشريعة الإسلاميين اتهامات تكال في العالم الغربي على مدار الساعة وتتردد بكل وسائل النشر والإبلاغ من قبيل: عدوانية الإسلام وحضه المؤمنين على سفك الدماء، كره المسلمين للآخر[1] ما لم يكن مسلماً، جنوح الإسلام إلى التسلط والديكتاتورية ومعاداته للتقدم وللقيم الغربية، استعباد المرأة، الأنساق الاجتماعية والقرابية والبدائية السائدة بين المسلمين... الخ). وزاد في كثافة استنساخ هذه الأفكار والصور المغلوطة واتساع مساحة انتشارها وتغلغلها قلق الغربيين بعامة، والأوروبيين بخاصة، من ظاهرة الهجرة المكثفة الشرعية وغير الشرعية من البلدان الإسلامية والعربية المشاطئة للبحر المتوسط أو القريبة منه إلى الأقطار الأوروبية وغيرها من بلاد الغرب. ولا يعود مرد هذا القلق فقط إلى كونه قيمة مضافة إلى أزمة الركود الإقتصادي وعدم الأمان الإجتماعي والإقتصادي والبطالة المستفحلة التي يعتبرها كارل بوبر

١ - لا يتخذ مصطلح «الآخر» عندنا في كل ما كتبناه حتى الآن دلالة إطلاقية. فهو في رأينا دائماً: «الآخر الحضاري». أي ذاك الذي يحمل مشروعاً تتشكل فيه ومنه نظرته إلى الإنسان والعالم والوجود والعلاقات بين البشر وصيغ الحياة الناظمة لمعيشهم كما ستخوض فيها هذه الدراسة، وباعتبار أن هذا المشروع تتقاطع معه أو فيه «الذات الحضارية» التي تضطلع بحمل مشروع حضاري مغاير أو منافس فيما تراه عنده مما تعتبره إيجابياً ومتلائماً مع اعتقاداتها وتصوراتها، بينما تختلف معه وتتدافع فيما تراه سلبياً أو مناقضاً لمقولاتها وأطاريحها أينما وجدت وكيفما كانت.

«مرضاً اجتماعياً حقيقياً، بل هو المعضلة الأكثر هولاً»[١] في تلك البلاد مع لوازمها وتداعياتها الإقتصادية والثقافية والسياسية والاجتماعية، بل إلى كون ذلك القلق أيضاً تثقيلاً لما بات يعرف في الغرب بتمدد الخطر الديموغرافي الإسلامي وتزايد نسبة الولادات في أوساط الأقليات الإسلامية هناك[٢]. علماً بأن هذا التكاثر الإسلامي الذي يبلغ في أوروبا وحدها ٣٣ مليوناً يأتي متواكباً على الدوام[٣] مع تعمق ما يسمى بالأزمة المستعصية للإندماج الإسلامي في نسيج المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها، وتعثر الجهود والإجراءات المتنوعة الآيلة إلى معالجتها[٤]، وذلك بقطع النظر عن النوايا والطوايا والمواقف الأخلاقية والسياسية التي لم تكن تسير دائماً في اتجاه واحد في البلدان الغربية.

---

١ - بوبر، كارل – في: «التسامح بين شرق وغرب» – ص/٨٢.

٢ - يعتبر تشارلز ويليام ميتر أن الديموغرافيا هي أحد أعظم عوامل تغيير التاريخ، ويتوقع أن تسبب في القرن الواحد والعشرين أحد أعظم التحولات في التاريخ حيث سيرتفع عدد المسلمين في العالم حوالي العام ٢٠٢٥ إلى نسبة تزيد عن ٣٠٪...
(انظر: – ميتر، تشارلز ويليام – في كتاب: «قراءات أميركية وإسرائيلية للشرق الأوسط في القرن المقبل» – ص /٣٠. من جهة أخرى وفي السياق نفسه توقع المستشرق الأميركي برنارد لويس، والنمو الديموغرافي الاسلامي يتطور بالوتيرة الحالية، أن تتحول أوروبا في نهاية القرن الحادي والعشرين إلى أكثرية مسلمة.
(انظر مقابلة معه أجرتها صحيفة (دي فيليت) الألمانية، ونشرتها جريدة (السفير) – بيروت، عدد ٣١ تموز/ يوليو ٢٠٠٤).

٣ - أنظر البيان الختامي لمؤتمر أئمة أوروبا الذي عقد على مدى يومين في فيينا. وقد نشرت وسائل الإعلام ملخصات منه – (أنظر: جريدة «السفير» - بيروت ١٠ نيسان /إبريل ٢٠٠٦.

٤ - (م.ن).

لقد كان واضحاً من البداية أن مقاربة لحظة ظهور الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية ووعي ردات الفعل عليها مشرقاً ومغرباً، لا يمكن لهما تقريب الحقيقة وكشف خلفياتها من خلال تركيز الجهد العلمي على عامل تكويني واحد. فقد تداخلت في التجارب العلائقية بين الإسلام والغرب، وتاريخها ممتد ومتطاول، تعقيدات مجتمعات الطرفين والتطورات والمؤشرات الموضوعية التي كانت في كل زاوية علائقية وعند كل مفترق أو متحول.. كانت كل يوم هي في شأن.

وعلى ذلك، فإن فهم المسلمين للغرب وفهم الغرب للمسلمين، لصيقان بطبيعة الحراك الداخلي لكل من المجتمعين وديناميات وتناقضاته وتفاعلاته المنتجة أو الرافعة للموقف من الآخر ولخطاب العلاقة به. ولأن هذين: الموقف والخطاب لطالما قفزا فوق الحقائق الجوانية، وهي في الأصل مؤدى الرؤية الحضارية لكل منهما إلى الآخر، فلم يكن ممكناً لأيهما أن يرى صنوه في المعادلة العلائقية الرابطة بينهما على حقيقته. ولذلك، لطالما كان في صورة الآخر مساحات مجهولة، وأحواز فراغ، ومناطق اشتباه، وأخيلة وتوهمات سميكة جعلت الحقائق الصحيحة بينهما تبدو غالباً ظلالاً أو رموزاً أو طلاسم، كل محاولة لتفسيرها أو تأويلها لا بد أن تأتي بمثابة وعي ممكن، لا وعي حقيقي كما ترسم بعض مبادىء علم الاجتماع البشري.

هو ذا واقع الحال في مقاربة فهم أسباب ظهور الرسوم الدانمركية. فكيف لنا أن نفهم هذه الاسباب معزولة عمَّا سبق ونوهنا به، أو عن

ديناميات وصيغ حياة المجتمع الغربي وحراكه الداخلي؟ فالثقافة العلمانية المتأصلة في الذاكرة الجمعية والوعي الغربيين والمسيِّلة في صيغ الحياة الغربية ونماذجها الإجتماعية ومثلها وفي السلوكيات الفردية والجمعية.. هذه الثقافة العلمانية التي تكاد المقدسات فيها أن تغيب بشكل شبه كلي، بما في ذلك المقدسات الدينية، لن يكون سهلاً عليها فهم أن يكون للآخرين مقدسات، وأن يتشبثوا بتقديسها إلى درجة تحريم مقاربتها رسماً أو كاريكاتورياً. وبخاصة إذا كان المنتمون إلى تلك الثقافة والعاملون بهديها يجهلون أن هذه أو تلك منزهة ومقدسة في ثقافة الآخرين واعتقاداتهم إلى درجة الإستعداد لتقديم أرواحهم فداء لها وذوداً عن حرماتها[1]. ولنتصور من بعد كيف تكون الحال إذا أبى غير التقديسيين ورفضوا عن سابق تصور وتصميم منهم، أو تجاهلوا تنزيه واحترام ما يؤمن به التقديسيون؟!.

التصوير الكاريكاتوري، أو ما يسمى بـ «الأسلوب الكاريكاتوري»، هو في الغرب – كما في العالم كله – لغة، وهو خطاب، غالباً ما يميلان إلى النقد المذاب في المفارقة أو التضاد بين الحقيقي والمتخيل، وما بينهما تتكون السخرية التي على ظهرها تحمل الرسالة من الباث المرسِلْ إلى المتلقي.

في الغرب تُرسم الشخصيات العامة والهامة أو ترمَّز القضايا التي تعنيهم

---

١ - يتشارك كل من المستشرقين Mayime Rodinson, Bernard Lewis في اعتبار الإسلام ديناً غير قابل للتعايش مع العلمانية بأية حال – أنظر لهذا الخصوص:

-(Lewis, Bernard - «Le retour de l'Islam» - P 206.)

Rodinson, Meyime – Préface de: «les Assassins» de Bernard Lewis.

بالكاريكاتور عادةً، وأصبحت كذلك في العالم. أما ترميز المقدسات الدينية المسيحية بهذا الأسلوب بقصد الإضحاك والسخرية فترفضه الكنيسة في المبدأ طبعاً، لكن ردها عليه إنْ حصل، فغالباً ما يأتي تنديداً أو ادانة ولا يصل الأمر إلى حد المواقف الردعية والملاحقة القانونية التأديبية التي من شأنها قطع دابر التصرف من أساسه ومنع تكرار الفعل منعاً باتاً. ولا يستسيغ الرأي العام، وهو علماني على نطاق واسع، مقاربة المقدسات الدينية كاريكاتورياً ويعتبرها بالأقل غير لائقة، تماماً كما في حالة السخرية الكاريكاتورية من أصحاب العاهات أو الحاجات الخاصة كما يرى O.Roy. وقد يطلب في حال الإساءة سحبها و/أو الإعتذار. أما التحريم النهائي بالقانون فهو في الغرب متفاوت في التساهل أو في التشدد النسبيين.

إذا أضفنا إلى دور الثقافة العلمانية في تعبيد السبل وتوفير الشروط والقابليات لنشوء ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية أو ما يماثلها، دور الحريات الشخصية والعامة في الغرب التي رفعت فوقها السقوف إلى درجة أثارت اعتراض كثير من الغربيين أنفسهم، عندها تتخذ محاولة فهم تلك الرسوم بعداً أقرب إلى الحقيقة.

كان في رأس ما أخذته بعض النخب الغربية على الردات الغاضبة والصاخبة التي قابل بها العالم الإسلامي ومسلمو العالم ما اعتبروه اعتداء وتدنيساً لمقدساتهم من خلال نشر تلك الرسوم، وعلى بعض النقد

المتجريء الذي صدر عن بعض الأوساط الرسمية وعن بعض قوى المجتمع المدني في الغرب، ما اعُتبر تفهماً لغضبة المسلمين واحساسهم بأنهم أصيبوا بجرح في الصميم.. كان في رأس ما أخذته تلك النخب على هذه وتلك، أنه تجاوز على الحريات الدستورية والقانونية وبالأخص ما يتعلق منها بحرية الرأي والتعبير وحرية الإعلام.

حتى أولئك الغربيون «المتفهمون» من شتى الشرائح كانوا شديدي الدقة في اختيار عبارات النقد المخملية والحريرية في وجه المدافعين عن أفعولة الرسوم، ولم يغفلوا إعلان تشبثهم، هم أيضاً، بالحقوق والحريات الدستورية في مجتمعاتهم، محاولين اقامة نوع من التوازن بين النقد الذي وجهوه وبين المسلمات العقدية والتعاقدية في مجتمعاتهم، مع اعتبارهم حقهم في هذا النقد الذي مارسوه جزءاً لا يتجزأ من هاتيك الحقوق والحريات نفسها التي ذهب بعضهم إلى حد المطالبة بتخفيض سقوفها هوناً ما، حتى لا تجتاح حقوق الآخرين في المعتقد والرأي وحرية التعبير عنها.. وجميع هذه الحقوق والحريات تقرها نصاً وروحاً الدساتير الغربية نفسها. لكن المفارقة جاءت غير مفكر فيها، أو أنها وصلت محمولة على حسبة مختلفة.

في ضوء هذه الاسباب والمعايير كلها وبهدي دلالاتها، نقدر أن التربة الإيديولوجية والثقافية وطبيعة العقد الإجتماعي المتوافق عليه في الغرب (CONSENSUS)، وتطور المنظومة العلائقية بينه وبين العالم الإسلامي

بمستوياتها كافة، صالحة لإنبات هذا النوع من الأفاعيل التي كانت الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية حلقة من مسلسل حلقاتها، فليست هي الأولى ولن تكون الأخيرة، على ما نقدّر.

جاءت هذه الرسوم بمثابة الطفح الموضوعي لاحتقان مزمن ومتراكم في جوانية المجتمعات الغربية تجاه الإسلام والمسلمين. فالعقل الجمعي والنفس الجمعية والذاكرة الجمعية، عندما تصل حدة الاحتقان في تضاعيفها إلى أقصى القدرة على الاحتمال، فلا مفر من ظهور أعراض ناتئة لهذا التورم تتخذ أشكالاً ولبوسات شتى من أمثال كاريكاتورات جريدة «Jyllands – Posten» أو ما هو أقل أو أكثر منها ايلاماً واستفزازاً.. فكيف، والحال هذه، عندما يكون التورم المنوه به سرطانياً؟!..

ب- على مستوى المسلمين:

قبالة حالة الاحتقان والتورم التي ما انفكت تزداد تفاقماً في أوساط المجتمعات الغربية ضد الإسلام والمسلمين وبخاصة بعد ١١ أيلول ٢٠٠١ وتتخذ أشكالاً هجومية متعددة عشية نشوب أزمة الرسوم، كان المسلمون في أنحاء العالم، ولو على تفاوت نسبي، يتخبطون في حالة احتقان وتورم أيضاً، ولكن باتجاها معاكس يتنقب فيه أشكالاً دفاعية متعددة. وللمسلمين الغربيين في ذلك شؤون وشجون تختلف نسبياً عن تلك التي يعيشها أقرانهم في العالم الإسلامي، وإن كانوا كافة يشتركون في معاناة عامة وبمستويات مختلفة. فللخصوصيات الجيوبوليتكية والمجتمعية كما

للتداخلات البينية أو المناطقية أو لتلك المرتكزة إلى استقطابات أو دوائر محورية، دورها المؤثر في هذا المجال. والكلام على ما يسمى بـ «هوية الإسلام الأوروبي مثلاً، أو على «فقه الاندماج أو لاهوت الاندماج» أو على «إسلام ينسجم مع الثقافة الأوروبية»... كل هذا الكلام جديرة دلالاته بالتفكر الحثيث[1].

تعاني الأقليات المسلمة في الغرب من ظروف معيشية ومشكلات مركبة وبالغة التعقيد يختلط فيها الايديولوجي بالسياسي والاجتماعي والثقافي والحقوقي في آنٍ معاً، كما تختلط فيها مشكلاتهم الوافدة معهم من البلاد التي هاجروا منها بالصعوبات الكأداء التي ما فتئت تثقل عليهم وتجعل حياتهم في البلدان التي استقدمتهم أو استقبلتهم حافلة بالمعاناة والعوائق.

المعروف عن «الدياسبورا الإسلامية» هذه أنها تشكو من أزمة هوية مستفحلة أثارت على أطرافها تشنجات واغراءات خوف وقلقاً على المصير وانغلاقاً موضوعياً أو اضطرارياً على الذات والجنوح إلى رهانات لم تكن صحيحة دائماً. وتكاد الدراسات التي تناولت هذه الأزمة تجمع على محصلة قوامها أن الدياسبورا الاسلامية حطت رحالها بين ظهراني مجتمعات مستقبلة تستعيد بناء نفسها، أو تتابع مسار تطورها بعد حربين عالميتين طاحنتين استنزفتاها وأنهكتاها أيما استنزاف وإنهاك، عدا

---

١ - راجع البيان الختامي لأئمة أوروبا... (م.س).

السلبيات الاجتماعية والإنسانية والثقافية التي خلفتها خسائرها البشرية الفادحة وصولاً إلى ما يسميه ادوارد سعيد بعد الباحث الفرنسي فيريليو «عواقب تفكيك الاستعمار»[١]. ذلك كله جعل هذه المجتمعات مأزومة على نطاق واسع، إذ لم يكن ممكناً لها مغادرة الخنادق وتوديع السلاح والجلاء عن المستعمرات بعد نحو جيلين من غير ندوب أو تعقيدات تنموية واعمارية، أو من غير توترات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية. فإذا كان للتخلف مِحَنُهُ، فلإعادة البناء والعمران بعد الخراب والتدمير في كل البنى المادية والإنسانية والمؤسسية، جرائيمها الايديولوجية والثقافية وتداعياتها المرضية ومضاعفاتها الجانبية، ومنها ما له كمون استراتيجي خبيث، وذلك مهما تدثرت المجتمعات المنكوبة بالنصوص الدستورية الوردية ومبادىء الديموقراطية ومسلمات الحرية والعقلانية.

على رأس ظواهر ما بعد الحرب الثانية في المجتمعات الغربية استشراء ثقافة «الإعياء من الأجانب» وعدم التسامح الديني والإثني والثقافي التي انفلتت من عقالها الحقوقي والقانوني بشكل خاص بعد الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، مع نزوع إلى الإستغراق في جنون عظمة[٢] واستكبار فائقين في ظل احتباس سياسي واقتصادي عالمي خانق.

---

١ - سعيد، ادوارد: «الثقافة والامبريالية» - ص /٣٨٢.

٢ - رمضان، طارق - مقابلة معه منشورة في جريدة السفير - بيروت - عدد ٢٣ تشرين أول/ أكتوبر ٢٠٠٤.

كان من الطبيعي والمنطقي أن تجد الدياسبورا الإسلامية نفسها مباشرة قبالة تلك الثقافة، بل في قلبها – أي بين فكّيْ التنين –، مع إصرار من جهتها على التشبث بالاحتفاظ بدينها وثقافتها الأصلية وعاداتها وتقاليدها وأنساق قرابتها ونمط حياة بلادها الأم ورفضها لبعض قيم المجتمع الغربي والكثير الكثير من صيغ حياته. وقد ترافق ذلك مع شعورها بالدونية[1] تجاه ما حققه الغرب من تقدم ومأسسة لحياته وشؤون وجوده ومعيشه، فأين هي من هذا «العملاق» الذي تتقلب بين راحتيه؟!.

كان التوادع والتفاهم بين الوجهتين الثقافيتين والحضاريتين المتعارضتين شديد الصعوبة بل متعذراً أحياناً. ولم تنجح محاولات التوافق والتوفيق تحت ما أطلق عليه اسم سياسات دمج المسلمين والمهاجرين في مجتمعاتهم الجديدة.. هذه السياسات التي لم نعثر قط على من يقول إنها نجحت في تحقيق أهدافها. ومع استفحال أزمة الدمج أو الاندماج وتزايد أعداد المهاجرين المستنبعة باحباطاتهم وخيباتهم وارتفاع منسوب التنافر الفصامي بين الطرفين واستئناف تصاعد قوة اليمين العنصري المتطرف في الغرب، تخصبت بين حنايا هذا الأخير ظاهرة موازية ظلت خبيثة ومحدودة حقباً، فتصدرت المشهد العلائقي بين الطرفين وهي ما يسمى: الإكزينوفوبيا» (XENOPHOBIE)، أو رهاب الأجانب أو العداء للأجانب[2].

---

١ – رمضان، طارق – (م.ن).

٢ – راجع في هذا السياق الكتاب الشهير لعمنوئيل تود: «مصير المهاجرين» .

(Voir: - Todd, Emmanuel - «Le destin des immigrés.»)

وها هو التقرير الصادر في آذار/مارس ٢٠٠٥ عن منظمة «فيدرالية هلسنكي لحقوق الإنسان» – مقرها فيينا – يقر بوجود تزايد مطرد في الغرب في نسبة ما يسميه «عدم الثقة بالأقليات الإسلامية والعداء لها». وما تزال هذه النسبة إلى ارتفاع بعد الحادي عشر من أيلول، كما يشير إلى ذلك التقرير نفسه.

هذه الإكزينوفوبيا وفي مقولاتها: «استحالة تعايش الإسلام مع تراث القيم الأوروبية وعصر التنوير» وهو التراث الذي تأسس عليه الاتحاد الأوروبي، كانت أحد الأحصنة التي امتطاها معارضو التصويت بـ «نعم» في الإستفتاء الذي جرى على مشروع دستور الاتحاد ونجحوا في اسقاطه في كل من هولندا وفرنسا. فقد جسد هؤلاء المتطرفون الإسلام والمسلمين في كيانية مناقضة لمغزى قيام أوروبا الموحدة، واعتبروهم أعداء للمجتمعات الأوروبية من الداخل، علماً بأن عدد المسلمين الأوروبيين اليوم في جميع الاحصاءات المنشورة يتراوح ما بين ١٢و١٥ مليوناً، يُقدر ارتفاع عددهم إلى الضعف حتى عام ٢٠١٥. ولايزال في البال الخطاب المثقف والسياسي بامتياز الذي سرى كالنار في الهشيم داخل بعض النخب الأوروبية لإعاقة أي خطة في اتجاه «إرتفاع» تركيا «المسلمة» إلى مستوى الصفوة التي يتشكل منها الاتحاد الأوروبي.

أما الطّامة الكبرى فتتجلى في اعتبار الجماعات المسلمة في الغرب بعامة وأوروبا بخاصة بؤراً لاستيلاد الإرهاب الموجه إلى الغرب نفسه (١١ أيلول ٢٠٠١)، و ١١ آذار/ مارس (مدريد ٢٠٠٤)، و ٢١ تموز/

يوليو (لندن ٢٠٠٥)، وذلك بناء على اعتبار الإسلام في زعم الزاعمين «مولّداً للطاقات الإرهابية». وهذا ما أثبت خطله وشططه الباحث الفرنسي في الشؤون الإسلامية Olivier Roy، إذ اعتبر بدوره أن وجود ارهابيين اسلاميين أوروبيين هو صناعة أوروبية بامتياز. فاللجوء إلى العنف مفسر عنده بفشل عملية الاندماج في مجتمعات الهجرة، لا بالتخرج مما «أسماه المدارس الدينية الباكستانية»[١]. وإذ يُسقط في يد بعض الباحثين الغربيين عندما يُرد عليهم بهذا النمط من الحجج فإنهم يفرون إلى تهمة أخرى يرجمون بها مواطنيهم المسلمين، وهي القائلة إن هؤلاء هم «حصان طروادة» الذي يستبطن صراعات الشرق الأوسط ليسقطها خلف أسوار العالم الغربي[٢]، أو يسهل سبل تغلغلها إلى نسيجه وكأنما المطلوب أن لا يكون لجماعات الدياسبورا المسلمة ذاكرة، ولا تاريخ ولا قيم بحيث يتجردون من حقوق أوطانهم وأهليهم وحتى حق المطالبة بها[٣].

هذا الاحتقان العام من الوجود الإسلامي في أوساط الغربيين يشكل

---

١ - أنظر كتاب: أوليفيه روا (العلمانية قبالة الإسلام).

Roy, Olivier Laieite face a l'Islam – Stock, Paris, 2005

- Voir: راجع مقابلة معه منشورة في جريدة Le Monde – باريس /٨ شباط / فبراير ٢٠٠٦.

٢ - (١٣) (م.ن).

٣ - قبالة ذلك ليس مطلوباً – كما يحلو للبعض أن يتأول – ، ولا يصح أن يطلب من المسلمين الغربيين أن يكونوا مجرد أدوات تحركها بعض الدول والأجهزة في العالم الإسلامي والعربي لمآرب وأهداف خاصة بها لا تمت إلى قضايا المسلمين الكبرى بصلة.

إذن القاسم المشترك في المخيال والمواقف والسلوكيات العامة الغربية، مع وجود إغراق في المبالغة في التركيز على لفت الإنتباه إلى بعض المسائل المتعلقة بالدين الإسلامي، إذْ نرى في الأدبيات العامة، إلى جانب الإرهاب والجهاد، إثارات تتعلق بالشريعة والحجاب وحقوق المرأة والتعددية الدينية وسلطة غير المسلمين على المسلمين.. الخ، وهذا ما يدفع من يعيش من هؤلاء في العالم الغربي إلى الشعور بأن استهدافهم بالإضطهاد والإنتهاك لحقوقهم الإنسانية ما فتيء يتنامى لكونهم مسلمين، أي بسبب اعتقاداتهم الدينية ولوازم هذه الاعتقادات ثقافياً وفي المعيش والتصرفات. ومن شأن هذا الواقع أن يدفع بهم، وعقدة الإضطهاد قد أخذت منهم كل مأخذ، إلى المزيد من التقوقع ومعاندة الاندماج في مجتمعاتهم الجديدة، بينما تتآكل علاقتهم بالسلطات القائمة وتتهافت ثقتهم بجدوى الانصياع لها والتعامل معها.

لكأنما، بتنا بناء على هذا التعارض الاحتقاني، وكأننا – إذا صح نعت الدياسبورا الإسلامية في العالم الغربي أو بعضها بالأصولية أو الراديكالية من قبل المنظرين وعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيا في الغرب، نقول: وكأننا بأشكال هذه الراديكالية المستجدة المنسوبة إلى الإسلام في الغرب هي بمثابة ردة فعل على أشكال الراديكالية التاريخية الدينامية التي لطالما عششت داخل المجتمع والدول الغربية نفسها[1]، وقد طورها الحادي عشر

١ – أنظر محصلة مناقشات أفكار Olivier Roy في المؤتمر الذي عقد لهذه الغاية في العاصمة الفرنسية في ١٢ تشرين أول/ أكتوبر ٢٠٠٥.

من أيلول ٢٠٠١ إلى انزياح جديد جعل الخطاب الغربي (يتحرر)[١]، عندما أباح على رؤوس الأشهاد ما لم يكن يجرؤ أحد على قوله، لا بل وعلى التفكير فيه حول الإسلام والمسلمين. وفي هذا المعنى يقول Gilles Kepel: «لقد سمح لنا الرعب من الإسلام بأن نسمي الآخر باسمه الصريح: العدو أو التهديد.. وبأن نضفي عليه وجهاً هو وجه ابن لادن، وأن ننسب إليه حتى أعمال البلطجة لعصابات شوارعنا، وذلك في عملية خَبَل وفوضى عامة في المشاعر»[٢].

لقد بات ما أُطلقت عليه تسميات هي بحد ذاتها مَهُولةٌ ومفزعة من قبيل: «ايديولوجية الخطر الإسلامي» و «ايديولوجية الفاشية الخضراء».. بات الإسلام «عدواً مثالياً للغرب»[٣]، فهو يجمع الخطر الخارجي المتمثل برمز كلي هو القاعدة، والخطر الداخلي الذي يمثله ملايين المسلمين الذين يعيشون في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية.

وبذلك ظهرت إلى الوجود طريقة جديدة في قراءة العالم وتفسيره، فاستبدلت الحرب الباردة بمنهج «صدام الحضارات»[٤] أو المواجهة بين

---

١ - المصطلح هنا للكاتب السياسي الفرنسي Alain Gresh (انظر مقالته في:
-GRESH, Alain – Le Monde Diplomatique (Maniere de voir – No.46, Juillet - Aout 2002) – P.P94-95.

2 - Kepel Gillers: Le Point – NO: 24 Mai, 2002

3 - Gresh, Alain – (O.P.cit).

4 - (18) Huntington, Samuel – Lui Sommes – nous P.350- Ed: Otile Jaeob, Paris, 2004.

«الحداثة والبربرية» أو بين الديموقراطية و «التوتاليتارية الخضراء» – كما يقول: Alain GRESH[1]

ثم هل من مزيد؟..

إذْ يوصف الإسلام بواحد من هذه النعوت فإن تحرير الخطاب لم يعد يقف في طريقه عائق إن نعت الآخر بالبربرية يعني بالفهم المثقفن الغربي أننا غدونا قبالة ما هو أخطر من أن يقذف هذا الآخر بفريـة التوحش، لأن البربرية هي نفي للحضارة والبربري لا يستطيع إلا أن يكون سيئاً وقبيحاً ولا إنسانياً أما التوحش فرغم كل شيء وحتى عندما يعترف له التفكير القانوني – الأنتربولوجي ببعض المساوىء والأخطاء فإنه يعترف له بالطيبة والاستعداد للخير[2][3].

بعض المحللين استذكروا مرجعية الحرب الباردة بين الإيديولوجيتين المتنافستين: الإشتراكية والليبرالية الديموقراطية وهم يقرأون ما آلت إليه الأمور بين شطري العالم حالياً، فرأوا إلى تلك الحرب أنها أكثر رويّا ومواداعة نسبياً قياساً إلى حجم التحفز والاحتقان الشاملين في السنوات المتأخرة. داخل الغرب نفسه إذاً يتعايش غربان موضوعياً، لكنهما جيوبوليتيكياً وحضارياً في أزمة علائقية خانقة: غرب تاريخي وغرب

---

1 - Gresh, Aain – (O.P.Cit).

٢ – أنظر: – فوكو، ميشال – يجب الدفاع عن المجتمع – الترجمة العربية – ص/١٩٧ – ١٩٨.

٣ – مؤخراً طوّر جان زيغلير مفهوم البربرية الكلاسيكي ليسقطه على النظام العالمي السائد اليوم عندما تحدث عن بربرية جديدة يعاني منها العالم مقرونة بالإجرام والعبث واللامعقول. (مقابلة معه منشورة في جريدة السفير – بيروت ٣١ آذار/ مارس ٢٠٠٦).

حصولي مستجد، كل منهما يصدر من مشروع حضاري، تكاد سلبيات التنازع والاحتقان والتعبئة المضادة، تطغى بشكل شبه كلي على مشتركات كثيرة بينهما جعلتها الحمى السائدة تغور إلى أعماق لا تجعل اعادة تعويمها في المدى المنظور يسيرة أو ممكنة قبل اخضاع الأنفس إلى حملة تبريد ونقاهة لا مفر منها. بيد أن حادث الرسوم الكاريكاتورية كان بمثابة وضع «البارود في النار» كما يقول الغربيون.

على المقلب الآخر.. في قلب العالم الإسلامي، وعشية اتقاد نار ردات الفعل على الرسوم الدانمركية، كان الاحتقان الإسلامي المشدود الوتر إلى قوس مأزومة قد لامس الذروة وبات ينذر بقدوم العاصفة، وقد عززته الذاكرة الجمعية للمسلمين والعرب بمدد لا ينتهي من الوقائع والمواقف وموروثات الاستباحة الغربية منذ عصر الاستعمار الكامل للعالم الاسلامي والعربي، إلى راهن امداداته وتحولاته، كما سبق وأشرنا.

في عصر الاستعمار الكامل توجه الاحتقان إلى إزاحة الاحتلال الأجنبي المقيم مادياً وثقافياً وحضارياً تحت شعار تحرير أرض الأوطان. أي أن المعركة التحريرية كانت محتدمة في الحيز المكاني نفسه بين أصحاب الأرض وعليها من جهة وبين محتليها من جهة ثانية. أي أنها كانت تتجه وجهة واحدة يتصدى من خلالها المواطنون للمحتلين بحيث يتركز الاحتقان في تلك الوجهة. بيد أن الاحتقان في الحقبة المتأخرة قد تحول إلى كل الاتجاهات وأينما تواجد طرفا المعادلة الكلاسيكية «المختلة» بمعيار موازين القوى، لكن احدى مفارقاتها «الطريفة» أن قطبيها

يتشاركان في جهل كل منهما بالآخر جهلاً مركباً في مسائل كثيرة برغم تعايشهما في بلاد كثيرة ومنذ أزمنة متقادمة. وقد كنا وقفنا بالتحليل عند دلالات ما تعلق في تلك المعادلة بمستوى الفهم الغربي للإسلام وللمسلمين بحيث لا يظنّن ظان بأن المشكلة العلائقية بين العالم الغربي والعالم الإسلامي مبنية على مجرد سوء فهم معرفي أو ابيستيمولوجي فقط من جهة الغرب، على وجاهة هذا الشأن التأسيسي ومبدئيته، وإنما هي فوق هذا وذاك تعبر عن رؤية حضارية قَبْلية يضطرب فيها الأيديولوجي والسياسي والديني والثقافي بما هي محددات لوجهة الصراع وأهدافه ومنتجة وسائله وقيمه وأدواته وبما هي منضبطة في سننه في آن معاً، ولدى الطرفين: الغربي والمسلم كليهما.

وذلك يعني أن كلاً من الطرفين، بحكم هذا الواقع المتداخل والممتد والمتجذر، ما كان فيه حقيقياً أو مفتعلاً أو محرفاً، قد استحوذ عليه تصور مشتبه وملتبس للآخر كان للجهل فيه باع وسلطان.

ولعل من المفيد في هذا السياق ذكر أن بعض رسامي الكاريكاتور في فرنسا أفادوا، وهم في صدد التعليق على ردات الفعل على الرسوم الدانمركية، بأنهم كانوا يجهلون بأن رسم صورة النبي محمد (ص) محظور في الإسلام. غير أنهم دافعوا عن زملائهم أصحاب الرسم التي نشرتها صحيفة «Jyllands – Posten» واعتبروا أن عمله لا يستحق أن يثير هذه «المشادّة» العالمية[1].

---

1 - Voir: «Le Monde» - Paris – 3 Février 2006, et «Libération», même date.

إلا أن ما يُفترض عادة أنه جهل الغرب بالشرق قد يخيل إلى البعض أنه معادل أو مماثل لما يسمى بالمقابل: جهل الشرق بالغرب، وبالتالي يتساوى الطرفان في جهل الآخر وذلك في الأسباب والنوع والكم والأهداف والقوى ومن ثم في المسؤوليات والتبعات.. وبهذا المعنى يصبح الشرق/العالم الإسلامي مكافئاً للغرب تكافؤ الضحية والجلاد، أو تساوي القاتل بالمقتول.. وفي هذا ظلم بَيّنٌ، مع العلم أنهما قد يتساويان إبّان بعض المراحل في مواقف أو ممارسات أو تهويمات أو مسؤوليات، إلا أن الأسباب التخفيفية لكل من الطرفين – إنْ توفرت – فهي قلما تأتي، بمعيار الحق والعدل، لتعفي قوياً من ذنب أو تبريء طاغية من جناية إرتكبها أو تجن افتعله، بينما نجدها متفهمة لعذر الضعيف أو المستضعف من غير أن تعفيه من مسؤولية ما يثبت أنه اقترفه أو جناه.

لقد عنّ لمفكر كبير هو ادوارد سعيد أن ينأى بنفسه عن اعتبار ما يتداول منذ سنين حول ما يعرف بـ «حوار الحضارات» أو «حوار الثقافات» اسماً على مسمى، نظراً إلى معرفته بمقدار الجهل الذي يَسِمُ «كلَّ حضارة/ثقافة» بالحضارة/الثقافة الأخرى، حتى أنه رفض مُصطلح «حوار الحضارات» واستبدله ساخراً بمصطلح «حوار الجهالات»[1]. وادوارد سعيد مصيب فيما ذهب إليه بنسبة ما، لولا أنه ساوى بين الجهالات، وهي في حقيقة الأمر غير متساوية، كما أنه عادلَ بين الجاهلين في المسؤوليات وهم غير متعادلين.

1 - Voir dans: FERJANI, Mohamed – Cherif: "Isalm Et Politique – Les termes du Debat" – Seminaire de Berlin (13-16 Novembre 2003) - P 10.

هل يصح الكلام في هذه الحال عن «جهل العلم» أو عن «علم الجهل»؟. فالجهل المتعمد هو من هذا القبيل لأنه تجاهل. وإذا كان الجهل موضوعياً هو بؤرة الإساءة للجاهل وللمجهول معاً، فإن التجاهل في السياق الذي نشير إليه هو تعمد للإساءة، إلى موضوع الجهل وممثله.

وبالتالي فهو اقتراف مستحق لاعتباره ارتكاباً غير بريء ويضع صاحبه في موقع الاتهام.

بمعنى آخر إن جهل العالم الغربي بالإسلام فيه الكثير من الجهل الحقيقي وقد بيّنا بعض وجوهه، لكنّ فيه أيضاً الكثير من التجاهل أو «الجهل المتعمد» - كما يسميه طارق رمضان[1] الذي هو في مؤداه وأهدافه عبارة عن جهل ايديولجي وسياسي. والتاريخ العلائقي بين الجهتين حافل بالمصاديق والشواهد التي ليست هذه القراءة مكاناً مناسباً لاستعراضها.

أما جهل العالم الإسلامي بالغرب فيكاد يكون في أكثره جهلاً حقيقياً وغير معتمد بمعنى أنه غير العلم، وهو جهل «ساذج»، تماماً كما يكون في العادة جهل الضعيف أو المستضعف، وبالتالي فإن مفاعيله قد تكون أشد خطراً من مفاعيل غيره. وإذا كان التجاهل فعلاً إرادياً ومقصوداً لذاته، فهو يرقى إلى مستوى العلم «الذكي» والموقف الدينامي والمحسوب بقطع النظر عن النتائج التي قد يسفر عنها.

أما الجهل الساذج فهو جنوح إلى البدائية والبداوة والتكرارية الجمودية والانعزال.

---

١ - رمضان، طارق - (م.س).

فعندما يجهل المسلمون المشروع الحضاري الذي ينافس مشروعهم، فهذا يعني أنهم سيكونون في غربة كاملة عن فكره وفلسفته وقيمه أو عن تشكل نظرته إلى العالم، وإلى الإنسان، وإلى علاقات البشر وصيغ الحياة وشروط المعيشة التي يراها الأصلح. ويعني أيضاً أنهم يجهلون نماذجه وصروحه المؤسسية والمنظومات التي اختارها لها.

بذلك يكون المسلمون، من حيث لا يدرون (ولا يشاؤون؟!)، قد أوقعوا أنفسهم في ذات الخطأ المنهجي الذي ارتكبه الغرب نفسه على مدى تاريخه في النظر إلى الإسلام والمسلمين، جهلاً منه أو تجاهلاً، مع فارق جوهري بالغ الأهمية والفاعلية هو أن الغرب في معادلة التدافع بينه وبين المشروع الحضاري الإسلامي قد ارتقى إلى موقع الهجوم والقدرة على الإمساك بزمام المبادرة والفعل، بينما ارتد المسلمون إلى موقع الدفاع وردة الفعل واستراتيجية البحث عن المخارج (المسدودة؟!).

إن الإستسلام لهذا الجهل «الساذج» مفضٍ بأصحابه، مهما حَسُنت نواياهم، للتحول إلى أمة ذات بعد واحد مكتفية بذاتها ومكبلة بقيود نرجسية اصطفائية فيها من العُجْب الفرعوني ما يؤدي إلى مهالك. فأمة هذا ديدنها يتعطل فيها العقل والحس النقدي وحوافز الكشف والإكتشاف، وتعطب قابليات النقد والنقد الذاتي والاستتابة، ويُنفى وجود أية حقيقة خارج قبضة يمينها، وتضيق فيها القدرة على وعي المتغيرات والتحولات.. أمة كهذه هي أمة مستكبرة لا ترى الآخر إلا بمنظار السلب والعدمية مستريحة إلى الأحكام المسبقة والمبرمة فلا ترى ذاتها إلا في

دفء الماضي الذي صنع أمجاده أجدادهم غير أحفادهم، ولا تطمئن إلا بشعورها بالاستغناء وفي الهروب إلى الإمام، أو في عصمة الذات والاعتصام بقوقعتها واحتكار المشروعية[1].

في كتابات معاصرة كثيفة قيل الكثير عن كون معرفة الآخر تخصيباً لمعرفة (الأنا) وإثراء لها[2]، ونضيف إن الإشاحة عن الاغتناء بِعِبَرِ تجارب ما يقرب من ثلثي أهل الأرض شرقاً وغرباً والتقوقع في جوانية الذات والاسترخاء في رحمها الدافئة تعني نقضاً لمغزى وجود البشرية ولدلالات تنوعها الطبيعي وافراغاً لمفهوم الاستخلاف الإلهي للإنسان في هذا العالم من مضمونه الرسالي الذي قالت به الأديان السماوية، وكسراً لنصاب التكامل بين البشر.

وهذا الجهل البدوي العصبي اذا استطال فإنه يتحول إلى عُصابي حكماً – يحقن الجماعة بوعي مضلل وزائف عن نفسها وعن الآخر، فيوهن قواها، ويجفف قابليات التطور فيها، ويحبط امكانيات الاستجابة الصحيحة والصحية للتحديات المطروحة في طريقها فتتجه بصيرورتها الطبيعية، وهي على هذي الحال من التيْه والزوغان، إلى الهدف الخطأ، وتتخلخل في نخبها معايير قياس الأولويات والخيارات الصحيحة.. فإذا مشروع وجودها، مشروعها الحضاري، في مكان، وأمته (هي) في مكان آخر. وتلك أمنية

١ - أنظر: حرب، علي – جريدة السفير، بيروت ٢٠٠٦/٢/٢٣.

٢ - راجع مثلاً كتاب حسن حنفي: «ماذا يعني علم الاستغراب؟»- ص/٢٢١ وما بعدها، ص/٦٦-٦٧.

وأنظر كتابنا أيضاً: «الصراع الحضاري والعلاقات الدولية» – ص /٩٧ وما بعدها.

أعدائها والمتربصين بها من جهة، وحرفٌ تخريبي عن خط تفاعلات حراكها الداخلي وعن دورها من جهة أخرى، فإذا هي لا تنجب في الكثير من الأحيان إلا الخيارات المعطلة لما يحييها.

فأية حالة احتقان عام إن لم تكن مضبوطة في مسار دقيق وعلى ساعة أهداف واضحة وقيادة حكيمة تعي كيف توظفه وتسير به إلى ما رسم له هي حالة مرشحة للإنفلات العشوائي والفوضى والانحراف عن أهدافها والتسبب بأفدح الضرر بالمصالح الجمعية العليا وبما خرجت لأجله. ولا نرى العالم الإسلامي في السنين الأخيرة إلاَّ داثراً في فلك محتقن من داخل ومن خارج، لكننا لسنا مطمئنين قط إلى أن منافذ هذا الاحتقان وتعرجاته المضطربة موصلة كلها إلى خير الجادة وسواء السبيل. والاحتقان المتصاعد بين العالم الإسلامي وبين العالم الغربي إن استمر مستوى الجهل أو التجاهل فيه على هذا المنسوب المرتفع في الوعي وفي الذاكرة والعقول والأنفس، وهو مستمر في التفاقم منذ عقود، فالعلاقات لن تميل بينهما إلى السويّة. ألا نتذكر القول المدرسي المشهور: من يزرع الريح يحصد العاصفة، وهو قول ينطبق على مقدمات وأسباب وطبيعة الاحتقان ومضمونه ونتائجه في الاتجاهين المتعاكسين؟!.

وإذا كان لا بد من الإقرار بأن الجهل الساذج والتبسيطي بكتلة الغرب وكيانيته المعقدة من قبل عامة المسلمين قد أسهم في توليد هذا الكم من الاحتقان ضد الغرب بعامة، فلا بد – بالمقابل – من الاعتراف بأن ما بذله المسلمون من جهد في سبيل تجاوز هذا الجهل ومعالجة أسبابه في عُقولهم

وأنفسهم، لم يكن في مستوى التحديات التي يطرحها الغرب أمامهم أو يفرضها عليهم. وفي هذا المجال كان ثمة جهدان كبيران لازمين وضروريين، جهدٌ يتجه إلى تصحيح صورة الغرب في داخل بيئات العالم الإسلامي بحيث يُقدم الغرب ويعرف على حقيقته بماله وبما عليه وبما هو تاريخ وليس بما هو «بعد التاريخ» كما يجزم فرانسيس فوكوياما -، وبما هو مشروع حضاري نتفق معه في مشتركات، ونختلف معه على مباديء وقضايا وقيم ما أكثرها، وكم جَنَت صورة الآخر الشوهاء من عذابات وجرت من كراهية وتنابذ في الجهتين!

هذا الترشيد في الجهد الأول المنوه به والمتوجه إلى الداخل الإسلامي، لا نراه إلا في مصلحة المسلمين أنفسهم أولاً ولمصلحة قضاياهم ومشروعهم الحضاري قبل أن ينيب الغرب منه مصلحياً حبة من خردل.

أما الجهد الضروري الثاني فيفترض فيه أن يتجه إلى الخارج.. أي إلى الغرب نفسه. بمعنى أن يتقدم المسلمون إلى تقديم أنفسهم للعالم بعامة وللغرب بخاصة خلافاً للصورة النمطية السلبية التي اصطنعها لهم هذا الأخير وحاصرهم في إطارها. فإذا بهم يتطوعون لفعل ما هو العكس فغلَّبوا تقديم السلبيات على الايجابيات. وبذلك ثُبتت الصورة النمطية التي اصطنعها الغرب للإسلام وللمسلمين، وأفيض عليها المزيد من المنفرات والمثيرات ولوازم التعبئة والاحتقان المضادين، وذلك بدءاً من آفات تخلفنا.. وصولاً إلى بطء حراكنا الفقهي في التصدي لاحتياجات العصر، لا

سيما منها ما يتعلق بما يحلو للبعض تسميته بـ «فقه الاغتراب والهجرة»[١] الذي ينبغي له أن يواكب خصوصيات الأقليات المسلمة في العالم وتجارب معيشها الفريدة من نوعها.

إثر أزمة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية كثيرون تساءلوا: مَنْ يُشوه مَن؟. في السياق الذي نشير إليه يبدو السؤال مشروعاً. فإذا كانت الإساءة إلى الآخر وتشويه صورته فعلاً سياسياً بامتياز وهو خطأ مدان بالمعايير الأخلاقية كافة، فإن الإساءة إلى النفس وتشويه وجهها، ولو بغير قصد، هما خطيئة متالية وحجة كاملة لتصنيف المرتكب في خانة التخلف، أو في خانة ما يسميه علي شريعتي بـ«الاستحمار»[٢].

---

١ - أنظر مثلاً:

- هاجر، محمد يوسف - في «الأقليات المسلمة في العالم» - جـ/٢ ص/٢٥ وما بعدها.

- راجع أيضاً البند ١٤ من تقرير وتوصيات الاجتماع الأول للجنة الخبراء المكلفة من قبل منظمة المؤتمر الإسلامي بوضع خطة عمل للحفاظ على حقوق الجماعات والأقليات المسلمة في العالم، والتي اجتمعت في مدريد ما بين ١٢-١٤ كانون الأول - ديسمبر ١٩٩٨. (م.ن) - ج/١، ص/٢٤٧.

٢ - شريعتي، علي - «النباهة والاستحمار» - ص/٣٩-٤٠.

الفصل الثالث

في ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية

وردات الفعل

في ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية وردات الفعل

في الثلاثين من شهر أيلول / سبتمبير ٢٠٠٦، نشرت احدى أكبر الصحف الدانمركية المحافظة: «Jyllands - Posten»، اثني عشر رسماً كاريكاتورياً للنبي محمد (ص) بحجة ما اعتبرته «دفاعاً عن حرية التعبير». إذ أن كاتباً دانمركياً كان قد وضع كتاباً عن نبي المسلمين، لكنه لم يعثر على رسامين يقبلون إعداد رسوم خاصة تعبر عن بعض موضوعات كتابه ليضمها إليه وذلك مخافة تعرضهم لحملات إدانة أو اعتداءات. فكان أن تطوعت «Jyllands - Posten» لمساعدته، فطلبت من أربعين رساماً كاريكاتورياً المشاركة فيما يشبه المسابقة في تحقيق هذا الهدف، قُبل من بين الرسوم التي تقدموا بها إثنا عشر فقط تولت نشرها.. وعلى الأثر كرَّ مسلسل ردات الفعل المنددة أو المتعاطفة فعمت العالم بأسره.

في جيبوليتيك ذلك الاحتقان «الهستيري» المتبادل والمتعارض بين

المسلمين والغرب لا تعود قراءة ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية ممكنة وفاق فرضية الصدفة او المفاجأة إذا أخذت من زاوية مبدأ الحدوث. أما إنتفاء إمكان هذه القراءة فعائد إلى سببين: الأول مرتبط بسياق الاحتقان الغربي ودلالاته ورموزه ووسائط تعبيره عن مكنوناته، بينما يرتبط السبب الثاني بسياق الاحتقان المتمادي في أوساط المسلمين وتعبيراته المختلفة ودلالاتها. فواقع الأمر أن السياقين – كما أسلفنا – يسيران جدلياً في اتجاهين متعاكسين.

بمعنى آخر، إن سببية الاحتقان المختلفة لا بد من أن تفضي مبدئياً إلى نتائج مختلفة في الجهتين تعبر عن نفسها بمقتضى مسارات الإفصاح والتعبير المألوفة والمعتمدة في بيئتها وبأدواتها الثقافية المتاحة ووسائل الإعلام والتبليغ المتوفرة لديها.

كان الغرب منسجماً مع نفسه عندما لم تظهر عليه أعراض الاعتراض والاحتجاج على الرسوم الكاريكاتورية في البداية، وهي كانت عَبَرَتْ في فضائه أول الأمر كما كانت قد عبرت نظيراتها الكثيرة سابقاً بأقل اهتمام أو انتباه ممكنين لو لم تقم الدنيا الأخرى عليه وتعصف في هدوء صفحته. وكان صادقاً ومنسجماً مع نفسه عندما «فاجأته» ردات فعل المسلمين في العالم الإسلامي بما يشبه الانتفاضة الشعبية العارمة، فانبرى، إذْ بُهت وأصابته الدهشة، إلى محاولة فهم ما يحدث – وهذه حال الغرب في ظروف مماثلة – وهو ما كان قد تعود على انتفاضات إسلامية شاملة من هذا النوع وبهذا الحجم والإصرار (المؤقتين؟!) ففي حوادث مشابهة كان

دأبها المرور مر السحاب، أما هذه المرة فانفتحت على مصراعيها وعلى أرضه آفاق نقاش وسجال عامين لَمَّا تنتهِ فصولها بعد، وقد انقسمت فيها وجهات النظر وتعددت وتفاعلت. وفي هذه أيضاً كان الغرب هو الغرب الطبيعي والمألوف والمنسجم مع منظومة قيمه، مع فارق هام قوامه أن ردات الفعل الصادرة عن مسلمي العالم على الرسوم قد أخرجتها، كواقعة، من سياقها التقليدي الغربي الهادىء لتجعلها في صدر الاهتمامات الغربية وفي واجهة العلاقات الدولية والسجال المحتدم حول العلاقات بين الثقافات والحضارات، والعلاقات بين الأمم والشعوب، وأهمها في هذه المرحلة التاريخية النقاش المفتوح حول علاقات العالم الإسلامي بالعالم الغربي.

قد كان ملفتاً مستوى «العقلانية» والحكمة والتوازن في مواقف وخطاب الأقليات المسلمة الغربية التي مارست فعل الاحتجاج على الرسوم الكاريكاتورية من قلب مقتضيات «الإندماج» وشروطه (Intégration)، وهو الذي لطالما اعتبر أزمة الأزمات في علاقة تلك الأقليات بالمجتمعات التي تشترك وإياها في معيش واحد وتواطن موحد.

كانت غالبية المسلمين الغربيين في الاختبار العلائقي الذي خاضته تنحو إلى الوسطية التي لا تشغلها إدانة ارتكاب فعلة الرسوم عن استنكار ما اعتبره الداعية الإسلامي الأوروبي الشهير طارق رمضان «هوس بعض الجماعات المسلمة بطلب الاعتذار أو الإنزلاق إلى منحدر التهديد

بالسلاح والإيذاء الجسدي للأجانب»[1]. فردات الفعل المتعارضة الصادرة عن الطرفين المسلم والغربي لا تشكل في رأيه صراعاً بين الإسلام والغرب بالمعنى الإطلاقي لكل من المصطلحين، بل هي تعبير عن صراع بين الإنفعالات والتعقل.. فلا يجوز، بذريعة الحق في حرية الرأي والتعبير، توسل هذا الحق المشروع لأجل قول كل ما نريد، ضد كل من نريد، وبأية طريقة كانت[2].

وبقطع النظر عن صحة بعض تفاصيل رأي طارق رمضان، فإن الموقف العام لمسلمي الغرب جاء منسجماً مع طبيعة تجاربهم وأنساقها الخاصة المستلَّة من معايشتهم الواقعية للحقائق العلائقية المتجسدة بينهم وبين مواطنيهم المنتمين إلى إيديولوجيات أو أديان أو مشارب أخرى، وليس من مجردات نظرية أو إيديولوجية.

على صفحة الغرب والعالم انتشرت ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية وردات الفعل عليها كبقعة الزيت، أو ككرة الثلج. في كل مكان شكلت هذه القضية دينامية جديدة بقوة دفع ذاتي ولو بمستويات مختلفة.

أما في قلب العالم الإسلامي فالاحتقان المزمن والمرفوع إلى أعلى وتائره أولى له في القراءة العقلانية أن لا يكون مفاجئاً لأي متابع إذا قيس بالمعايير الطبيعية لسيكولوجيا الحراك الجماهيري وتطور تفاعلاته، كما لطبائع البشر وسنن اجتماعهم أو تفرقهم.

---

1 - Ramadan, Tariq - «Libération» - Paris, 8 Février 2006.

2 - Ibidem

لقد كانت موارد الإنتفاض والتمرد في العالم الإسلامي متوفرة إلى حد بعيد، فمنذ عقود وهي لا تنفك عن التراكم والتفاعل والتضخم. حتى أن عدم حصول الإنفجار كان يبدو مستهجناً ومستغرباً أكثر بكثير من حصوله، كما كنا قد نوّهنا.

مع كل ذلك جاء حدوث «الانتفاضة» الإسلامية مفاجئاً لغير المسلمين وللمسلمين أيضاً. وبمعنى أدق كان لنخب المسلمين بمثابة غير المفكر فيه.. وسبب المفاجأة واحد: سنة تعودناها وعُرف أرسيناه وألفناه قوامهما غياب المسلمين، أو بمعنى أدق: غياب الشارع المسلم عن الحضور المؤثر في تقرير وتوجيه مصير قضاياه الكبرى، وأكثر قضاياه كبرى، وفي مجرى التحولات الآيلة إلى تهديد وجوده قبل مصالحه، وإلى اهدار حقوقه المشروعة.

استراتيجيو وخبراء الغرب بشؤون العالم الإسلامي، أو بعضهم بالأقل، مطمئنون إلى أن هناك الشارع، إن تحرك، فحركته قصيرة النفس والتنفس وبالتالي فهي لا تخيف أحداً ولا تحول ولا تُحيل. لقد رصدوها واختبروها (أليسو هم الخبراء؟)، فتبين لهم أنها كنارٍ في كومة قش، سرعان ما يخبو أوارها. يقول: Robert Mallay، وهو مستشار للرئيس الأميركي السابق بيل كلنتون، عن ما يسميه: «الشارع العربي»، ولفظة الشارع في الغرب تتضمن بالمعيار السياسي معنى غير لائق، ... يقول الرجل تعليقاً على ردات فعل هذا الشارع إثر بدء العمليات العسكرية الأميركية في أفغانستان: «لقد أحصى الصحافيون الأميركيون [وهذه صفة مموهة لمن

هم غير صحافيين] مستعينين بآلاتهم الحاسبة، عدد التظاهرات التي شهدها العالم العربي أسبوعياً احتجاجاً على تلك العمليات، فإذا هي: تسع تظاهرات خلال الأسبوع الأول، ثم ثلاث تظاهرات في الأسبوع الثاني، ثم واحدة، ثم اثنتان، ثم لا شيء، فواحدة أخيرة لا غير حدثت في الأسبوع السادس»[1]. ويعلق «روبرت ماللي» على هذه الظاهرة بقوله: «الظاهر أن صمت الشارع العربي قد أدى، على مستوى الولايات المتحدة الأميركية بالأقل، إلى بروز استنتاجات يصعب دحضها. وأولها أن الرأي العام العربي لا يحترم شيئاً بقدر ما يحترم النفوذ والقوة»[2]. ثم يستنتج المستشار السابق لكلينتون: «إن لما سبق نتيجة طبيعية: صارت أميركا مطلقة اليد فيما تفعله في أفغانستان طبعاً، ولكن أيضاً في العراق أو في أهداف أيسر، أي في البلدان التي تسمى في واشنطن: الثمار التي في متناول اليد»[3].

إن هذه الشهادة، وبعض ما فيها مهين، تنبيء بأن الشارع العربي/ المسلم كان يثير التوجس والقلق، لكن التجربة الميدانية أثبتت أنه ليس فيه ما يُخشى منه. فلتطلق حرية التظاهر والاحتجاج بضعة أسابيع، فبعدها ستطلق الحرية المنتظرة المضادة لتستأنف تنفيذ ما عزمت عليه ما

1 - Mallay, Robert – "le Monde" – Paris, 23-24 Decembre, 2001.
(أنظر ترجمة لمقالته منشورة في ملحق جريدة "المستقبل" – بيروت، ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

2 - Idem.

3 - Idem.

دام ذلك «الشارع» مفتوحاً وخالياً. لكن حسبة الحقل لم تأتِ مطابقة لحسبة البيدر لجهة انتباه الشارع المسلم وانفجار ردة فعله هذه المرة... وأما المحصلات والجدوى الختامية ففيها كلام آخر آتٍ.

المفارقة إذاً، وهنا أيضاً، هي في أنه جرى إخراج واقعة الرسوم الدانمركية من سياق الحراك الإسلامي التقليدي المخدر أو المسفوح بالاحباطات والهزائم واليأس، لتصيب الدهشة الجميع ولتنقلب الصورة رأساً على عقب من الإنطفاء إلى الإتقاد، ومن السلب إلى الإيجاب.

لقد خرج الاجتماع الإسلامي فجأة من غرفة العناية الفائقة، وقد سجن فيها حقباً، إلى دبيب العافية برغم ما شاب هذا الخروج الصحي في أصله من نتوءات وخروقات عنفية لم يكن ما تسببت به من اساءة أقل أذى وإضراراً من وقع الرسوم الكاريكاتورية الحمقاء نفسها، كما سبق لنا وأشرنا آنفاً وهي شوائب غير مستغربة في مناخ فلتان الغرائز المقموعة واندلاع السخط المضغوط، وقد نزعت عن قنابله الموقوتة والمتنوعة الأشكال والأنواع جميع صمامات الأمان والرشد في بعض مناطق المسلمين، بموجبات النسق الحضاري الغربي وأدوات القراءة فيه كانت ظاهرة الرسوم إذاً حادثة عادية انسيابية في سياق روتيني وأنماط معالجة مقولبة ومرجعيات جاهزة. أما بلوازم النسق الحضاري الإسلامي فقد تحولت الرسوم إلى حدث انقلابي وإلى تطور هام لعله حمّال قابليات دينامية في المستقبل. لقد أمست مطابقة الصورة/التصور على الواقع والحقيقة مطروحة للسجال والتفكر من جديد لحسن الحظ.

في الإنسيابية الغربية، حتى في قلب الشعور «بالصدمة» من الهيجان الإسلامي – للغرب أيضاً قابلية ملفتة لتلقي الصدمات، وبُناه تتقن كيفيات احتوائها والتعامل بها- .. في هذه الإنسيابية وبقوانينها أعيد طرح قضية الكاريكاتورات الدانمركية على بساط البحث بمستوى الاهتمام الذي حددته ردات الفعل الإسلامية وتحت سقفها تقريباً.

اضطربت مواقف المحللين الغربيين في البداية ثم اصطفت في أربعة تفسيرات عامة للظاهرة والردات المتفجرة في وجهها:

التفسير الأول حضاري جاء من تصور نمطي اعتبر مسألة الرسوم وجهاً من وجوه صدام الحضارات[1]– الأطروحة التاريخيه المعروفة لصامويل هانتنغتون.

التفسير الثاني سوسيولوجي بنحوٍ عام ويعتبر أن الظاهرة هي الابن الشرعي للسجال الدائر في الغرب حول معضلة العلاقة، التي لَمَّا تحلَّ بعد في المجتمعات والدول العلمانية، بين الحريات العامة والخاصة وبين المقدس، أي بين القوانين الوضعية والحلال والحرام الإلهيين[2].

وانصرف التفسير الثالث إلى الجانب القيمي وكَيْلِ الغرب بمكيالين، فما لغير المسلمين حق مفروض ومصان بالايديولوجي والثقافي والسياسي والقانوني من جهة العدل جاء أم من جهة التسلط. وأما ما هو للمسلمين حتى ولو كانوا غربيين فلا يحظى بهذه الامتيازات لا جزئياً ولا نسبياً، وقد تحرَّم عليه كلياً. بمعنى آخر إن القيم التي ينادي بها الغرب، وهي التي

1 - Voir: - Roy, Olivier (O.P.cit).

٢ - (م.ن)

يفترض فيها أن تحاكي الإنسان بمعناه الكلي سواء كان يعيش داخل الغرب أم خارجه، نراه يخالفها في قلب مجتمعاته، ويخالفها خارجها، بل يمارس نقيضها[١].

أما التفسير الرابع فهو سياسي اعتبر ردات الفعل الإسلامية الطالعة من قلب العالم الإسلامي مجرد تصفية حسابات لبعض الأنظمة الاسلامية والعربية في الشرق الأوسط مع الولايات المتحدة على خلفية مواقفها المتماهية مع المصالح الإسرائيلية، ثم مع أوروبا من جديد بعد عودتها إلى الإلتحاق بتحالفها الإستراتيجي مع الولايات المتحدة الأميركية وذلك على أثر تباعد مؤقت حدث بين الطرفين على هامش التحضر للهجوم الأميركي على العراق. أما ردات الفعل الإسلامية المصعَّدة في الغرب نفسه من قبل الأقليات الإسلامية، فقد صنفها القائلون بهذا التفسير أنها إنما جاءت بناءً على «أوامر» صدرت من الدول والمنظمات الإسلامية والعربية التي ما انقطعت قط عن اعتبار مواطنيها «الغربيين» أدوات تحركهم لأسباب شرق أوسطية[٢][٣].

هذه التفسيرات للظاهرة ولردات فعل المسلمين عليها، على أهميتها الأكاديمية وتنوعها الايديولوجي والثقافي برغم بعض المهرجانية التي أحيطت بها وبرغم جرعات الجهل المركب التي امتلأ معظمها بها، ظلت

---

١ - الحمص، سليم – جريدة «السفير» - بيروت، ٢١ آذار /مارس ٢٠٠٦.

2 - Roy, Olivier – (O.P.cit).

٣ - هذا الموقف يكاد يكون هو نفسه الموقف الرسمي الأميركي المتعلق بأزمة الرسوم الكاريكاتورية (راجع: جريدة "Le Monde" الفرنسية – ٩ شباط/ فبراير ٢٠٠٦.

أسيرة النخب وبعض المواقع البحثية ومراكز الدراسات. وما ظهر منها في رسائل الاعلام بقي محدوداً بحجة وفاعليته وقدرته على النفاذ على نطاق واسع إلى وعي الرأي العام في الغرب الذي ظل بدوره مشدوداً، بدفع الاحتقان التاريخي والتدشيم الثقافي النشط والتسميم الإعلامي المنظم، إلى عتلة المواقف الصادرة عن المؤسسات السياسية الرسمية الغربية التي أربكتها ردات فعل المسلمين في البداية، فالتجأت إلى احتوائها عبر اعلانات «النوايا الطيبة» التي تتحدث بعبارت منتقاة بإتقان عن «تفهم لشعور المسلمين بالمهانة، وإدانة كل التصريحات والأعمال المهينة لأي دين»[1]. لكن هذا «التفهم» سرعان ما خُففت نبرته بتغليب جرعات التنديد بأعمال العنف التي انحرفت إليها بعض الجماعات في مظاهرات الاحتجاج على الرسوم في بعض بلدان العالم الإسلامي. ثم راح تصعيد الإدانات الرسمية الغربية لما يسمى «بالعنف الإسلامي» يشتد حتى أطاح مفاعيل «التفهم» ليجعله من باب رفع العتب الدبلوماسي والتخدير فحسب. ثم كان فتح سجال جانبي واسع النطاق بعنوان «الدفاع عن حرية الرأي والصحافة والتضامن مع الصحيفة الدانمركية» التي نشرت الرسوم المسيئة لرسول الله (ص) من خلال إعادة نشرها في بعض الصحف والمجلات الأوروبية.. كان فتح هذا السجال باباً رحيباً لمعاودة تسعير حُمَّى الإسلاموفوبيا والاكزينوفوبيا وإثارة المشاعر ضد المسلمين والإسلام. حتى أن وزير الإصلاح الإداري في الحكومة الإيطالية

١ - أنظر جريدة «Le Monde» الفرنسية – ٤ شباط /فبراير ٢٠٠٦.

Roberto Calderoli تجاوز «تفهم» حكومته ليدعو إلى «حرب صليبية» ضد ما سماه: «الخطر الإسلامي»، ثم قفز إلى التذكير بحصار الأتراك لفيينا وبمعركة LEPANTE (القرنان السادس عشر والسابع عشر) وبدعوة كلٍ من البابا «بيوس الخامس» البابا «إينوسنت الحادي عشر» إلى اتحاد الحكومات المسيحية آنذاك وإلحاق الهزيمة «بالغزاة المسلمين»[١].

حتى الفاتيكان سرعان ما تراجع عن دعوته الأولى إلى «تحالف الأديان» في مواجهة الإساءة إلى المقدسات الدينية، وذلك بعدما استثارته اعتداءات بعض المتظاهرين على كهنة مسيحيين وعلى بعض الكنائس في تركيا ونيجيريا والفيليبين[٢]. فقد تحول خطاب الكنائس الغربية على أثر ذلك، إلى «خطاب متشدد حيال الإسلام»[٣]. وصدرت دعوات من مقربين للبابا الحالي «بنديكتوس السادس عشر» إلى وقف الحوار مع «الإسلام» «لأنه دين مغلق لا يقبل الندية»[٤].

لَيْتَهُ كان لهذا البحث مجالٌ للخوض في مناقشة هذه التفسيرات، التأويلات العربية لظاهرة الرسوم وردات الفعل الإسلامية عليها. لكنَّ بعض الملاحظات الأولية نجدها ضرورية ولو من باب «ربط النزاع» مع هذه التفسيرات كما يقول الحقوقيون. لقد باتت لافتة «صدام الحضارات»، والمقصود الرئيسي منها الكلام على «صدام الأديان»، لازمة مبتذلة تتردد

١ - أنظر جريدة «Le Monde» الفرنسية – ٤ شباط /فبراير ٢٠٠٦ (م.س).

٢ - (م.ن).

٣ - (م.ن).

٤ - الدعوة صادرة عن المونسنيور Velasio de Paolis المقرَّب من البابا في تصريح منه منشور في جريدة «La stampa» في ٢٢ شباط /فبراير ٢٠٠٦ (انظر: (م.ن).

في كل مناسبة أو قضية تتعلق بالعلاقات بين الإسلام والغرب، وبين المسلمين والغربيين. ما أكثر الجهل في المرددين، وما أبعد النظرية عن موضوعها الحقيقي في أكثر الأحيان.

ولأننا قيد الخوض في قضية الرسوم الكاريكاتورية، فإننا نعتقد في هذا السياق أن نسبتها إلى «صدام الحضارات» هراء «مثالي»، فلا «الصدام» المفترض أن يكون بين طرفين متقاربين في القدرة والموقع... قائم فعلاً وذلك لإنتفاء شرطه التأسيسي نظراً لغياب التكافؤ بين الحضارتين المعنيتين ما دامت احداهما مهيمنة والثانية مستضعفة مدافعة من جهة (الملفت الطريف أن صامويل هانتنغتون - صاحب نظرية صدام الحضارات – يبني نظريته على أساس أن الإسلام دين هجومي حدوده دائماً دموية)[1]، ولأن الغرب ليس المسيحية من جهة ثانية، فحضارته علمانية مادية[2]– وإن كنا نسلم بأن بعض مكوناتها القيمية، كحقوق

---

١ - هانتنغتون، صامويل – "صدام الحضارات" – ص /٢٨.

٢ - الجدير ذكره في هذا السياق أن دول الاتحاد الأوروبي رفضت الإشارة في مشروع دستورها الموحد إلى الديانة المسيحية كأحد مصادر التشريع والثقافة الأوروبيين، وذلك برغم الحاح بعض دول الاتحاد والمطالبة الحثيثة الموجهة من قبل الكنائس الأوروبية وأتباعها وبعض هيئات ومنظمات المجتمع المدني في الغرب. وفي حينه كان ملفتاً قول وزير الخارجية البلجيكي Louis Michel: «إن ذكر الدين المسيحي في الدستور الأوروبي الموحد هو تعبير عن تعصب ديني. والمطالبة به هي ذرائعية سياسية وفلسفية تتنافى مع الطبيعة الإيجابية لمشروع الدستور.. ثم من يضمن غداً أن لا يأتي آخرون ليطالبوا بإدخال هوية دينية أخرى إلى هذا الدستور؟..».. والسؤال الذي يوجهه الوزير البلجيكي ليس بلا دلالة استراتيجية، وبخاصة إذا علمنا بأن الإسلام هو الدين الثاني في اوروبا.
(أنظر: مجلة «L'EXPRESS» – باريس، ١٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٤. واستطراداً:- السماك، محمد –جريدة «السفير» – بيروت، ٣١ آذار / مارس ٢٠٠٦).

الإنسان مثلاً، أو مكوناتها الثقافية هي ذات صلة بجذور دينية مسيحية، ما تعلق منها بعصر الأنوار مثلاً.

في مسألة «صدام الحضارات» يمكن أن نتقبل طرح قضية الرسوم من زاويتها، إذا كان المعني بالإسلام الدين، كونه مشروعاً أو حضارة إلهيين، بينما الغرب هو مسمى آخر للحضارة المادية، عندها يجوز الكلام على «صَدْم الحضارات» لا صدامها. لأن ثمة حضارة صادمة من نوع معين وحضارة مصدومة هي من نوع مختلف. والفرق بَيّنٌ. وفي كل حال نرى أنه حتى لو افترضنا أن الحضارة دين، فإن ما بين العالمين الغربي والإسلامي من تدافع هو ليس صداماً بين دينيهما، ولا كان كذلك في التاريخ.

أما اعتبار الرسوم الدانمركية أحد مظاهر التنازع بين المقدس والزمني في الغرب، فقول نقبل بوجاهته، لكننا لا نراه في كبد الحقيقة بل في ظل واحد من ظلالها المتعددة.

في التفسير الثالث المردود إلى ازدواجية المعايير معيار ينشيء الغرب قياساً عليه في بعض الجوانب صورة للإسلام وموقفاً وخطاباً منه، لا يستطيع منصف أو شاهد عدل إلا أن يتلمسا حجم الظلم والتجني والتحيز الناتجة عن تلك الإزدواجية، سواء ما كان منها صادراً عن الوعي أم عن اللاوعي الغربيَّين، عن قصد أم عن غير قصد صدر. وهذه منهجية منظمة وتاريخية لطالما وُضع فيها الإسلام والمسلمون في مرتبة دنيا، يُنْظَرُ

إليهم من عَلٍ يقطر فوقية واستعلاء، الوعي أو اللاوعي فيها يقولان شيئاً واحداً ويعبران عن «حقيقة» مفتعلة واحدة لا يمكن لها أن تُسَوّي خلافاً، أو تقيم سلاماً علائقياً، وإنما من شأنها تفخيخ الروابط بين الجماعات بالكراهية والكمائن وتحيُّن الفرص للارتداد عليها وتمزيقها مع ما يرافق ذلك من صدامات وتداعيات تبدو فيها محاولات الإصلاح واسترجاع الثقة المفقودة بين الناظر والمنظور، وبين الذات والآخر كأحلام الأبالسة.

إبَّان انفجار أزمة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية كان واضحاً للعارفين بشؤون الغرب أن ازدواجية المعايير كانت توأم تطور الأزمة، تواكبها أنّى تكون وفي كل موضع تحل. تظهر إلى جانبها في كل صورة، وتُلمح في كل وجه بدا، وتنضح من كل خطاب، وتسهم في صناعة كل موقف إلى درجة أن الباحث ليتعجب من كثافة كل هذا «النفاق» الفكري والثقافي والسياسي الذي استُنزل دفعة واحدة إلى ساح السجال، وليستفظعه. فكيف لهذا «الغرب» ذي الحول والطول والفعل الحضاري الكبير أن يتحول في لحظة إلى كتلة من النفاق.. يكاد كل ما فيه ومن فيه يتحول إلى داهية سياسي يحمل حملة رجل واحد، ويتماهى في قولة وموقف يكادان يلامسان حداً مقلقاً مما يشي بـ «الإجماع». ولقد أقرّت قلة من المثقفين والأكاديميين الغربيين بممارسة هذا الاقتراف، لكن إقرارها دِيْسَ تحت سنابك الخيل السياسية والأسنّة الإعلامية التي سُلّت في وجه الاحتجاجات التي صدرت عن مسلمي العالم المعترضين بشدة على ارتكاب فعلة تهين مقدساتهم. فقد فضحت بعض الكتابات نفاق الصحيفة

الدانمركية نفسها (Jyllands – Posten) التي سبق لها أن رفضت قبل ثلاث سنوات نشر رسوم كاريكاتورية تمثل السيد المسيح (ع) بأشكال اعتُبرت مهينة[1]، إلا أنها استسهلت إجراء «استدراج عروض كاريكاتورية» ممن يعرف أو لا يعرف أنها مهينة لنبي المسلمين (ص).

كتابات أخرى ذكّرت بحادثة وقعت سنة ٢٠٠٥ المنصرمة عندما تمكنت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية من استصدار حكم قضائي يسحب من التداول إعلاناً تجارياً لماركة أليسة جاهزة يستخدم مشهد «العشاء السري» للسيد المسيح (ع) وحوارييه الذين استبدلوا في الإعلان بنساء يرتدين ثياباً غير محتشمة... ويومها لم تقم لأحد قائمة في الغرب تعترض على موقف الكنيسة أو تندد بالحكم الصادر بحجة الدفاع عن حرية الرأي والتعبير والحريات الإعلامية، ولم ترتفع أصوات تذكر بذريعة الذود عن حقوق الإنسان، حتى كتب أستاذ القانون في جامعة باريس العاشرة (Paris X – Nanterre)، الدكتور Daniel Borrillo، تعليقاً على الرسوم الدانمركية: «إن حرية الرأي عندنا تسير بسرعتين مختلفتين»[2].

ثم أليس ذا دلالة جهاراً نهاراً كيف يُعامل الإسلام والمسلمون في الغرب معاملة مختلفة عما يُعامل به الأديان الأخرى وأتباعها؟![3]

وأما التفسير الرابع: التفسير السياسي، فهو ذاته تفسير الرئيس

1 - Voir - «L'Humanité» - Paris , 11 Février 2006.

2 - Borrillo, Daniel - «Le Monde» - Paris, 9 Février 2006.

- Voir aussi : Roy, Olivier - «Le Monde» - Paris, 8 Février 2006.

3 - Ramadan, Tariq- «Libération» - Paris, 8 Février 2006 (O.P.cit).

الأميركي جورج بوش ووزيرة خارجيته كونداليزا رايس[١]، وهو على قدر كبير من التبسيط وذلك بقدر ما فيه من ذرّ للرماد في العيون من خلال القاء اللائمة على مسلمي الشرق والغرب على السواء، وذهاب في اسقاط المسؤولية على غير المسؤول الحقيقي[٢]. فحتى ولو كانت بعض دول الشرق الأوسط قد غطت ردات الفعل لجماهيرها الثائرة أو شجعت عليها، فإن ذلك يعتبر حجة لهما لا عليهما سواء، تعلقت ردات الفعل بالرسوم الكاريكاتورية أو بخلفيات وترميزات تلك الاحتجاجات التي كانت مترعة بتراثها الرمزي المذهل، وذلك من خلال رفع أعلام فلسطين وحزب الله العراق وإحراق أعلام الولايات المتحدة وبريطانيا ودول أوروبية أخرى، ناهيك باليافطات والشعارات التي رفعت في المظاهرات.. وكلها رموز عبرت عن ما هو قبل الرسوم وما هو تحتها وفيها، وذلك في جيوبوليتيك يبدأ بعهد الرسول (ص)، وصولاً إلى آخر عدد نشرته وسائل الإعلام لضحايا مذابح الشوارع في العراق.

بانوراما الاحتجاجات هذه ترسم خطوط الفوارق بين تفسيرات المتساجلين في الغرب حول ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية، وبين الحقائق

---

١ – جريدة Le Monde الفرنسية – ٢٠٠٦/٢/٩

٢ – من أطرف ما قرأنا من مقالات، واحدة بعنوان رسالة (Polémia) منشورة على الإنترنت تناولت أزمة الرسوم واعتبرتها إثباتاً لوجود قطيعة في الصراع الدولي القائم مع حقوق الشعوب في حرية الراي والتعبير. ورأت المقالة أن أمة حرة وسيدة هي الدانمرك قد تحولت إلى ضحية الصراع بين امبراطوريتين هما الأمبراطورية الإسلامية والأمبراطورية الأميركية بهدف تغيير أسس حياتها (كذا).

الفعلية لما يدور في العالم الإسلامي وتلك التي صدحت بها الحناجر الغضبى وعبرت عنها الأنفس المحتقنة والذاكرة والوعي الجمعيان للناس.

حتى عندما انبرت نخب الغرب لتظهير حدث الرسوم وتحليل أبعاده، وبعض ما توصلت إليه يتضمن الكثير من الصواب، فإنها ظلت عاجزة عن تحديد المشكلة العلائقية بين العالمين الحضاريين والثقافيين وعن تشخيصها بدقة وعن التقاط أبعادها كافة. فثلاثة من التفسيرات الأربعة التي نوهنا بها اتجهت إلى الغرب نفسه حضارياً وقانونياً وأخلاقياً، وهذا الاتجاه لا ريب في صحته من حيث المبدأ. لأن الغرب بكل ما يتضمنه المصطلح من دلالات هو في موقع الفعل والمبادرة والقوة منذ قرون، غير أن محاولة فهم كل هذا التاريخ العلائقي المأزوم بالتجارب والصدامات والمآسي المتنقلة من مستوى إلى مستوى، ومن بلد مسلم أو عربي، إلى بلد آخر، ومن حرب ماحقة إلى حرب أمحق.. هذه المحاولة لا ينبغي أن تُرى على أساس ما ذهبت إليه التفسيرات الثلاثة الجزئية فقط. وإنما ينبغي أن تتجه الأنظار بمنهج وعي نقدي جديد إلى ما هو خارج المركزية الغربية ونرجسيتها. لأن البقاء في نطاق أسوارها المقفلة يعني أن شيئاً لم يتغير أو يتبدل قياساً إلى ما كانت عليه التجارب والممارسات العلائقية السابقة. فنعود – طبقاً لقوله تعالى: «كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها»[1]، فيبقى الجهل المركب قائماً، وتمتد عدوى التجاهل إلى ما لم تكن

١ – سورة الأنعام – الآية /١٢٢/.

قد أدركته بعد، أما توليدات الاحتقان بتنوعاتها الكثيفة فهي قائمة على قدم وساق وكامنة تنتظر فسحة أو فسخاً تنفجر من فوهته.

من معادلة التوازي بين المعرفي والسياسي، وبينهما وبين القيمي.. ينبغي لهذا الوعي النقدي الجدي أن يبدأ بالتصحيح والترشيد باتجاه سويَّة علائقية حقيقية تتكامل فيها الذات بالآخر وتعترف به وتعرفه فلا تسطو عليه ولا تهيمن. ولا يبدو لنا هذا الوعي قريب التحقق بكل أسف لأننا لانزال نائين عن وعي سنن التاريخ، ناهيك بالنأي عن المواقف الصحيحة منه، ولأننا مانزال منخرطين حتى العظم بتفاضلات تكوينية أو حضارية أو سياسية أو مسيسة ليست صحيحة دائماً نريد عبرها لأنفسنا وأهوائنا التسيُّد والرفاهية وضمانات التفوق الاستراتيجي على الآخرين، ومن حساب حقوقهم المعنوية والمادية وثرواتهم، حتى من دون الاعتراف بهم أيضاً..

الفصل الرابع

في دروس وعِبَر الرسوم الكاريكاتورية

في دروس وعِبَر الرسوم الكاريكاتورية

عِبَرٌ ودروس كثيرة تندب نفسها وتندب إليها من خلال دلالات تطور حدث الرسوم الدانمركية والعاصفة التي أحدثتها بين مسلمي العالم، والجدل الواسع الذي أذكته في الأوساط الغربية على مستويات شتَّى كما سبق وبيَّناها. في هذه الدروس والعِبَر ايجابيات مبشرة، لكن فيها – بالمقابل – سلبيات مُنفِّرة من غير الجائز ترك نقدها والتنبه إلى عواقبها وأضرارها. وما ذلك إلا لهدف ترشيد المقبل من التجارب وحصر الأخطاء المحتملة والإرتكابات التي قد يندفع إليها الجمهور والعامة فيكون من نتائجها استدراج الوبال والأذى إلى أي حراك شعبي مقبل أو ممكن. فكل تجاوز أو انحراف يصدر عن تأجج جماهيري محق ومشروع من شأنه قضم أو خطف بعض الإيجابيات من إنجازاته، وربما أتى على جدوى الحراك أو الاحتجاج العامين من أساسهما وأطاحها. وقد يحدث الأسوأ المتمثل بقطع الطريق على أي اعتراض مستقبلي واجهاضه وتيئيس المشاركين الممكنين فيه واحباط النفوس والهمم المتطلعة إلى الإصلاح وإلى مستقبل افضل، وهذا يعني رفع مستوى الأذية لتطال مصالح الأمة العليا. علماً بأن نزول

الجماهير الغاضبة إلى الشوارع للإحتجاج أو للطلب هو أمر شديد الخطورة ويستدعي الحيطة والحذر من أي انفلات أو سوء استخدام أو انحراف ربما جَرَّ أو ضم العواقب.

أ- في العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي:

١- أظهرت أزمة الرسوم وتداعياتها أن الغرب الذي يبدو غير واحد ولا موحد استراتيجيا في بعض الأزمات الدولية ومفترقاتها، سرعان ما يعود الى التوحد والإصطفاف في مجال مشترك واستقطابي بين المختلفين، حتى ولو طَفتْ على سطح العلاقات بين دُوَلِه أو حتى بين شعوبه بعض التباينات التي عَنَّ في لحظة شطط تنظيري متسرع لبعض الاستراتيجيين الأميركيين أن يحتسبوها افتراقاً، بل قطيعة استراتيجية بين شقي العالم الغربي: «أوروبا القديمة» - كما سموها في لحظة اختلافهم معها وبين الولايات المتحدة الأميركية[١]، كما حدث في مقدمات حرب احتلال العراق.

صحيح أن المنافسات الثقافية داخل المجتمعات المدنية قد شهدت مستويات مختلفة من الجدل والسجال حول حدث الرسوم وتداعياته في

---

١ - خصص روبرت كاغان، وهو من صقور المحافظين الجدد ومنظريهم في الولايات المتحدة الأميركية، كتابه الشهير: «القدرة والضعف» لبيان الإفتراق الاستراتيجي بين «أوروبا القديمة» والولايات المتحدة الأميركية معتبراً أن الوقت قد حان للتوقف عن الادعاء بأن الأميركيين والأوروبيين يتقاسمون نظرة واحدة الى العالم.

- (Voir: Kagan, Robert - «La puissance et la faiblasse» -.

وأنظر مقابلة معه منشورة في جريدة «السفير»، - بيروت، عدد ١٧ آذار /مارس ٢٠٠٣، نقلاً عن مجلة «L'EXPRESS» الفرنسية

مختلف الإتجاهات، وبخاصة في فرنسا وبريطانيا، إلا أن هذين الجدل والسجال جاءا أقرب إلى أن يكونا تعبيرين عن خصوصيات ثقافية معهودة في هذه المجتمعات، أكثر من كونهما معبرين عن انقسام فعلي وعمودي.

٢- كشفت أزمة الرسوم الحجم «المخيف» للجهل المركب بالآخر بين الطرفين الغربي والمسلم، فتداخلت وتدخلت لشد أزره مجموعة عوامل تناحرية ايديولوجية وحضارية وثقافية وتاريخية وسياسية، فنفثت في عُقده وعصبياته ونفخت مشاعر التشكيك والتوجس وعززت المخاوف المتبادلة وتداعيات سوء الفهم فاستحكمت محفزات الفرقة والتباعد. ولا نظن من بعد أن منظومة علائقية سَوِيَّة يمكن أن تبنى على جهل أو تجاهل. فبالمعرفة يكون انتظام الاجتماع الإنساني ويستقيم تكامله وتنوعه. لكأنما احلال الجهل والتجاهل، وهما نقيضا المعرفة والتعارف، هو بمثابة الشرط الضروري لانفصام الاجتماع البشري ولزوال الإنسان[١]. إلى هذا نرجح أن الآية الكريمة قد وجهت الناس في قوله تعالى: «يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»[٢]. فلا المعرفة أنجزت، ولا التعارف تحقق. أما التنوع فَنُسِخَ إلى مفارقات ضدية وافتراقات ما إنْ يُسد فيها فتق حتى تتداعى له فتوق. وإذا طرفا

١ - الطباطبائي، السيد محمد حسين - «الميزان..» - مجلد ١٨/ - ص/٣٢٦.
وكتابنا: «الصراع الحضاري والعلاقات الدولية» - ص/١١٠ - ١١١.
٢ - سورة الحجرات - الآية ١٣/.

المعادلة العلائقية موضوعان دائماً في قلب أتون ملتهب بالقلق والاحتقان يحضر الغرب فيها كمفاعل سلبي ومؤجج للصراعات والعصبيات ومقترف للحروب أو محرض عليها وقد تحول الدفع باتجاه الكراهية إلى ضالة عنده، فما يعتم حتى يجدها، في رسوم كاريكاتورية.. أو في غيرها.

قال الإمام أبو حامد الغزالي يوماً قولة في الجاهل ما أصدقها: «إنه فَقَدَ هاديَيْه: عقلَهُ وعلْمَهُ»[1]. فكيف إذا كان قد فقدهما معاً؟!

في هذا السياق ينقل «نورمان فرنكلستين» عن جون ستيوارث مِلْ» قوله: «إن الحقائق التي لا توضع موضع التحدي المستمر لإثبات صحتها، ستتوقف في نهاية المطاف عن أن تملك وَقْعَ الحقيقة، لأن تلك الحقائق جرى تضخيمها حتى غدت باطلاً»[2].

٣- بينت أزمة الرسوم هذه أن «بارانويا» الغرب لم تعد تهمة يتساجل أهل المعمورة فيها. فالغرب نفسه يكاد لا ينفيها بعدما ارتدى خصائصها وحقق شروطها كافة تقريباً. فمن لا يقول اليوم إن الغرب يفرط إلى درجة مَرَضية (ومزمنة) في تقدير ذاته والاعتداد بقوته التي لا نرى هراواتها إلا مُشهرةً، ولا سيوفها إلا مسلولة. جنوح إلى الأحكام والتقديرات الخاطئة، هائم في أوهام وأخيلة وتصورات وهواجس مبالغ فيها تتعلق بأخطار الآخر وتهديداته و «إرهابه»، وذلك كله في تهويمات

---

١ - الغزالي، الإمام أبو حامد: «الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الانجيل» - ص/٣٩.

٢ - راجع:

- فرنكلستين، نورمان - «صناعة الهولوكوست» .

ومزالق لا عقلانية تقرب من الهذيان والتطير العنصري في كثير من المفاصل العلائقية بينه وبين العالم الإسلامي بشكل أخص.

ولقائل هنا ان يقول إن هذه البارانويا الغربية، بخصائصها المنوه بها وبشروطها المذكورة جائزة في المسلمين ايضاً. وذا قول فصلٌ. فالعالم الإسلامي مضروب بعصاب «البارانويا» ذاتها، وإن بدت عليه بعض الأعراض المختلفة عن تلك التي تجتاح «شريكه» العلائقي، ولكنْ مع فارق جوهري سبق أن توقفت هذه الورقة عنده. «فبارانوياه» في كثير من أعراضها الظاهرة فيه هي بمثابة ردة الفعل «الدفاعية» في مواجهة البارانويا الهجومية الغربية. وإذا كان جائزاً لنا في متون هذا النص الكلام على «جدلية احتقانية» في اتجاهين متضادين، فإننا والحال «البارانوية» هذه، نسوغ صحة وجود «جدلية بارانوية» ايضاً في الاتجاهين المتعاكسين إياهما، ولو بمسؤوليات غير متوازنة بين الطرفين العلائقيين.

٤- نقل حدث الرسوم الدانمركية الجدل العلائقي بين الغرب والمسلمين، وفي داخل الغرب نفسه تحديداً، من دائرة إلصاق التهم بالآخر والضغط عليه من خلالها إلى دائرة الاعتراف بالذنب والاقرار به ولو بشكل نسبي. وذلك من خلال ما سمته أكثر النخب السياسية الغربية: تفهم مشاعر المسلمين الناقمين على الإساءة إلى نبيهم (ص) وإهانة مقدساتهم، أو عبر التفسيرات التي تداولتها النخب لظاهرة الرسوم وللإحتجاجات عليها من قِبَل مسلمي العالم. وبهذه الدلالات حققت هذه الظاهرة من

خلال السجال الذي أثارته في المجتمعات الغربية نوعاً من انزياح التركيز على التهمة اليومية للمسلمين بالإرهاب، وهي تهمة إرهابية بامتياز، ليجري تداول طرح «مواز» يَحْمل الغرب وزره، عنوانه: الإقرار بـ «استفزاز المسلمين» ودعوتهم إلى «ضبط النفس»[١]، أو اعتبار السجال الدائر تعبيراً عن مشكلة قائمة «داخل الغرب نفسه» - كما قال Olivier Roy[٢]. صحيح أن الغرب، بمؤسساته الرسمية والدينية وهيئات وقوى مجتمعه المدني وأكاديميه، قد أجمع على الاحتجاج والتنديد بأعمال العنف التي اقترفها بعض المحتجين المسلمين في بلدانهم، غير أننا شهدنا، قبل تلك الأعمال ببرهة قصيرة أصواتاً كثيرة قد ارتفعت هناك بالدعوة الى احترام الأديان والاعتقادات الدينية للمسلمين وبينها أصوات أحزاب يمينية متهمة بالتطرف اليميني والعنصري كـ «الجبهة الوطنية» في فرنسا بزعامة الشخصية الإشكالية: Jean- Marie Le pen[٣]، وإن ظلت تلك الدعوة، في قدرتها على الانتشار والإستقطاب والتأثير، صرخة في واد.

٥- سلطت احتجاجات المسلمين في العالمين الإسلامي والغربي

---

١ - راجع تصريح رئيسة الاتحاد الأوروبي في حينه، وزيرة خارجية النمسا في ٣شباط /فبراير ٢٠٠٦ المنشور في جريدة «Le Monde» الفرنسية في عدد ٤ شباط / فبراير ٢٠٠٦، وكذلك المواقف المعلنة لحكومات البلدان الإسكندينافية: السويد وفنلندا والنروج - (م.ن).

2 - Roy, Olivier – (O.P.cit)

٣ - أنظر تصريحه في جريدة «Le Monde» الفرنسية بتاريخ ٤ شباط / فبراير ٢٠٠٦، وفيه انتقد نشر الرسوم قائلاً: «من حق المؤمنين أن تُحترم معتقداتهم، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً».

والجدل الذي أثير حول أزمة الرسوم الضوء على أوضاع الأقليات الإسلامية في الغرب وعلى أهمية دورها وحضورها حيث هي، فطرحت مشاكلها ومعاناتها وأزمة علاقاتها بالبيئات الاجتماعية التي تحيا بين ظهرانيها بدءاً من معضلة الاندماج (Intégration) والهوية، وصولاً إلى قضايا معيشها وحقوقها السياسية والمدنية.

ولقد كان ملفتاً شبه الاجماع الحاصل في دوائر علماء الاجتماع السياسي والمحللين الغربيين على وصف ردات الفعل الصادرة عن مسلمي الغرب بعامة والأوروبيين منهم بخاصة بأنها كانت «معتدلة» ولم تخرج عن أطر وتقنيات الاحتجاج تبعاً للنموذج/الموديل الغربي (مظاهرات سلمية واحتجاجات تحت سقف القانون، خطاب احتجاجي هادىء بعيد عن التحريض على العنف، التركيز على حدث الرسوم وتحاشي «الإنزلاق» و «التورط» فيما عداه، إقامة دعاوى قضائية على صحف ومجلات أعادت نشر الرسوم الكاريكاتورية المنشورة في صحيفة Jyllands - Posten» تضامناً معها، الإمتناع عن الشعارات المعادية للسامية..).

يُسجل في هذا السياق أن بعض المحللين الأوروبيين لم يريدوا لإحتجاجات مسلمي أوروبا أن تكسب نقطة لمصلحتها من خلال «المقبولية والاعتدال» اللذين وضفت بهما، حتى في موقف حساس كهذا، فزعموا بأن أولئك المسلمين تعمدوا اللجوء إلى الاحتجاجات «الهادئة» حتى لا تجري مقارنة هذه الأخيرة بشكل سلبي بتلك الاحتجاجات

«النارية» التي حدثت على نطاق واسع من المدن الفرنسية الكبرى وضواحيها، وبعض المدن الأوروبية الأخرى، والتي سميت بـ «حركة الضواحي»[١] [٢].

٦- على صعيد العلاقات بين المؤسسات الدينية المسيحية من جهة، وبين الإسلام والمؤسسات الدينية الإسلامية من جهة أخرى، أثبت حدث الرسوم الكاريكاتورية أن بنى تلك العلاقات منخورة في جذورها، وما ظهر منها منذ عقود لا يعدو كونه حالات ومواقف ظرفية ومصلحية أو مساعي تلطيفية أو اختبارية لمّا تؤسس بعد لتعارف حقيقي ولتعالق بين الدينين السماويين قابلين للاستمرار والتطور الموصلين إلى تحالف سوي ومتماسك لا تطيحه أخطاء عابرة هنا أو ممارسات متخلفة هناك، ولا تجعله يتهافت عن بكرة أبيه عند أول مفترق خلاف أو تباين.

لقد آن للقاءات البروتوكولية الإسلامية - المسيحية أن تتحول إلى حفر مستقيم في صلب المعادلة العلائقية.. كما آن لسمفونيات ومدائح الحوار الإسلامي المسيحي العقيم نسبياً حتى تاريخه والتي تبذل في كل الاتجاهات أن تتجه إلى تقويم ومراجعة النتائج التي أسفرت عنها، ونعتقد من جهتنا أن هذا التقويم، إنْ حصل بموضوعية وصدقية وحزم، فستدشن العلاقات الإسلامية - المسيحية عهداً جديداً لمصلحة كل الناس.

---

١ - (م.ن).

٢ - المعنى هنا لجوء شبان الضواحي إلى إحتراق آلاف السيارات كتعبير احتجاجي على الظروف القاسية التي يعيشون فيها.

إننا مانزال غير قادرين على الفهم بأن ممارسة فردية كبعض الممارسات المشينة التي ظهرت في بعض الاحتجاجات على الرسوم الكاريكاتورية، قادرة وحدها على تغيير وجه أو مصير قضية كبرى تهم البشرية جمعاء.

ب- في ايجابيات واقعة الرسوم على العالم الإسلامي:

١- قدمت الرسوم مصداقاً إضافياً على قوة حضور الشؤون والقضايا المتعلقة بالإسلام على الصعيد العالمي وذلك خارج نطاق التركيز على معادلة المساواة بين الإسلام والإرهاب. فثمة شؤون وقضايا أخرى أكبر شأناً وأشد تأثيراً على العلاقات الدولية من واقعة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية، لم تحظ بذات قوة التغطية والإنشغال العالميين، بينما قفزت قضية الرسوم إلى واجهة الإهتمامات الدولية بمستوياتها المختلفة، وتحولت إلى حالة كوزموبوليتية كونيّة أو عولمية بسرعة فائقة، وذلك منذ لحظة ظهور الإرهاصات الأولى لنزول المسلمين في العالم إلى الشوارع. فثمة منسيات ومهملات من حقوق المسلمين ومن أطروحات الإسلام الحضارية الكبرى قد أعيد السجال حولها أو استعادت بعضاً من حقها بإعادة التركيز عليها وفي طليعتها علاقة المقدس بالحياة والحريات.

٢- إن مقارنة أوّلية بين حراك المسلمين الاحتجاجي في العالم بين ما رفعوه من مطالب طلبوا تحقيقها والإستجابة لها من قبل الهيئات والجهات والمؤسسات التي توجهت إليها غضبتهم الثائرة (إعتذار الحكومة الدانمركية، تعطيل الصحيفة التي نشرت الرسوم الكاريكاتورية، قطع

العلاقات الدبلوماسية ومقاطعة السلع، استصدار قرارات أممية وأخرى صادرة عن منظمات أقليمية...).. هذه المقارنة تظهر بما لا يدع مجالاً للشك مدى عدم التناسب أو عدم التوازن بين الحجم الضخم للاحتجاجات والمسيرات والتظاهرات وبين ضعف المطالب المرفوعة أو أكثرها، عدا مقاطعة السلع والبضائع المستوردة من بلدان متورطة في إهانة المسلمين ومقدساتهم. فقد أثبتت التطورات والتداعيات اللاحقة فاعلية هذا الإجراء ومضاءه «كسلاح» هجومي ودفاعي في آنٍ معاً، وسلمي وقابل للتنفيذ في أصعب الظروف.

وإن دل عدم التوازن بين المطالب المطروحة وضخامة الاعتراض على شيء فإنما يدل على حقيقتين أساسيتين في رأينا:

- الحقيقة الاولى تضيف مصداقاً جديداً أيضاً وأيضاً إلى مصاديق ما كنا ذكرناه حول أسباب الاحتقان الشعبي في أوساط مسلمي العالم بما تجاوز بكثير السبب لتفجير ردات الفعل.

- أما الحقيقة الثانية فتعكس نوعاً من الإضطراب لدى قيادات المحتجين في تقدير المسافة الملتبسة والفاصلة بين الممكن وغير الممكن في المطالب المرفوعة، وذلك في ظل الظروف والمعادلات القائمة وموازين القوى الذاتية والموضوعية والدولية الموجودة، حتى ظهر واضحاً أن إرادة وتطلعات الجماهير /الأمة هي في وادٍ، وأن المعابر إلى تلبيتها في وادٍ آخر، وأن بأس الناس وحزمهم جاءا أقوى من المطالب المرفوعة نفسها بما لا يقاس.

ومما يجدر التوقف عنده في هذا السياق الشعار/المطلب الذي رفعته بعض الجهات الرسمية والدينية والشعبية في العالم الإسلامي وقوامه الدعوة إلى.. والعمل على استصدار قانون (أو أكثر) على المستوى الإقليمي والدولي يحظر الإساءة إلى المقدسات الدينية أو يدعو إليها، حتى أن بعض «الطوباويين» من أصحاب النوايا الطيبة، وقد لعبت ضخامة الإحتجاجات بعواطفهم وبرؤوسهم فتحمسوا لمطالبة الدول الغربية ذاتها بسن قوانين من هذا النوع أسوة بما فعلته بمعاداة السامية والهولوكوست!...

بطبيعية الحال، لا يجادل عاقل في وجاهة مطلب استصدار مثل هذه القوانين أو التعهدات – وليته يتحقق، سواء كان ذلك في الجانب الدولي أو في الجانب الإقليمي والفرعي، أو في أي مكان ممكن آخر. غير أننا – من جهتنا – لا نراه كافياً البتة، وقد يكون عديم الجدوى في الظروف الحالية لموازين القوى، فعدا صعوبات الاستصدار وموانعه، فهناك صعوبات التنفيذ ونوع وطبيعة الممانعة الذاتية القائمة في المجتمعات المقصودة بتطبيق واعتماد هذا النوع من القوانين، حتى ولو وقع غير المتوقع.

إننا مانزال نؤمن بأن ما ينبغي له أن يعالج في العلاقات بين العالم الإسلامي ومسلمي العالم وبين الغرب، قبل القوانين الأممية وبعدها، هو إصلاح هذا الخراب العظيم والتاريخي في تلك العلاقات التي غدا كل ما فيها يشكو ويغص بالمرارات.

٣- شكلت الاحتجاجات على الرسوم الكاريكاتورية في بلدان العالم الإسلامي، وقد عمته من أقصاه إلى أقصاه، علامة فارقة في السنوات

الأخيرة، فمنذ احتلال أفغانستان ثم العراق، لم تشهد شوارع بلاد المسلمين هذا التدفق الجماهيري الغفير من أجل قضية عامة عابرة لحدود الأعراق والأجناس والقوميات ومتجاوزة للعصبيات الوطنية والتباينات السياسية والاختلافات المذهبية والحزبية.

وإذا كان لمدقق أن يبحث عن جامع مشترك دفع هذه الجموع الهادرة للنزول إلى الشوارع والساحات بشكل منظم أو بشكل عفوي على مستوى العالم الإسلامي بأسره، فإنه لن يَعْنَى في القطع بأن هذا الجامع المشترك هو وحدة شعور هؤلاء الناس بالمهانة والمظلومية، وإرادتهم في رفض ما تعرضوا، وما يتعرضون له من عدوانية واعتداءات وانتهاكات متمادية. ولن يقبل إلا جاهل أو ساذج أن كل هذه الحشود قد اندفعت إلى الاحتجاج بلغات وأشكال ومستويات مختلفة من أجل حفنة رسوم كاريكاتورية منشورة في صحيفة، هي على رمزيتها الكبيرة في موضوعها (شخص الرسول (ص))، ليست سوى نقطة في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج ما انفك يمتد طولاً وعرضاً وارتفاعاً في الغرب، تصطخب فيه وتتلاطم أفكار ومشاعر وممارسات «العداء» للإسلام وللمسلمين. وبرغم كراهيتنا التعميم من خلال مصطلح «العداء»، ونحن نعرف أن في الغربيين من لا ينظرون إلى الإسلام والمسلمين باعتبارهم أعداء كافةً، فإننا لم نجد ما هو أقدر من هذا المصطلح على التعبير عن حالة ثقافية شاملة في الغرب أو عن ايديولوجيا تشكل خلفية النظرة إلى المسلم أو العربي باعتباره كائناً يجسد الممانعة لكل ما هو تمدن أو حضارة، وأن المصدر

الأساسي المولدّ لهذه الممانعة هو دينه الذي جعله في جميع الأحوال غير قابل للتكيف أو للتآلف مع الآخر[1].. وهذا الخطاب الإطلاقي المتكرر بكثافة منذ قرون، ما كان له إلا أن يرسم حدوداً بتسميات مختلفة بين عالمين يتكثفان في ثنائيتين جوّالتين كما بات معروفاً: شرق/غرب، إسلام/مسيحية، إسلام/غرب.. وصولاً إلى الموضة المتأخرة المسماة: صدام الحضارات.. إنها هي.. هي أشكال وتسميات مختلفة لصورة نمطية واحدة مدة بدأت منذ فتح الأندلس ومنذ ترميزات معركة بلاط الشهداء (Poitiers) التي حدثت عام ٧٣٢م بين المسلمين والفرنجة، وقد ارتدا المسلمون بعدها وفاق الرواية الغربية عن متابعة فتحهم لأوروبا شمالاً بعد استيلائهم على إيبيريا عام ٧١١م، وارتقى الأوروبيون المنتشون بذاك الإنتصار برائدي التصدي للزحف المسلم آنذاك: رولان وشارل مارتل (المطرقة) إلى مصاف جعلهما في «المنقذين للغرب» (Sauveurs de l'Occident)[2].

لا نريد في هذه الإشارة نفي تلك الثنائيات المترادفة، فـ «النّحْنُ» والـ«هم» حقيقة انسانية واجتماعية وتاريخية ونفسانية، لكن الأهم فيهما هو مضمون كل منهما وتصورها للعالم ولعلاقات البشر المنبثقة من رؤيتها الشاملة وكيف مارست هذا التصور وسيّلته في المواقف والسلوكيات

1 - Voir: - Le Cour Grandmaison, Olivier - «Le Monde Diplomatique» - Janvier 2005. P.P24-25.

2 - Ibidem

والأفعال، وليس في الخطاب فحسب. احتجاجاً على جميع هذه السلبيات المتفاقمة التي رمَّزتها الرسوم الدانمركية خرج مسلمو العالم إذاً في غضبة واحدة.

صحيح أن وجهة السُّخط كانت مصوبة إلى الخارج، لكن الداخل الإسلامي المأزوم والفقير والمنكل به والمهمشة إرادته والمسلوبة حقوقه البديهية كان خلفية الخارج الذي كان يكاد ينطق به. والداخل حالة احتقان في اتجاهين: واحد ذاهب إلى مسؤوليات الخارج فيما حدث له ويحدث وآخر يستكن مسؤوليات الداخل عما أصاب المسلمين وما انفك ينزل بهم النوازل. الرسوم إذاً، فرصة ومناسبة لتفسير وترجمة المكبوت الذي ما انقطع الداخل والخارج معاً عن محاولة سد منافذ الضوء والهواء عنه من كل الجوانب.

بهذا المعنى يمكن اعتبار الاحتجاجات وردات الفعل على الإهانات التي تسببت بها الرسوم عامل استنهاض للشارع الإسلامي، قضيته هي:

١- الوقوف في مواجهة الهجوم الغربي المتعدد الرؤوس والأهداف والأنواع.

٢- إشعار العالم بمدى السخط المعتمل في قلب العالم الإسلامي نتيجة لما يتعرض له من ظلم ونهب وإفقار واستنزاف وتهميش واستهانة حتى بالمقدسات.

٣- اشهار الحقوق المغتصبة كلها من احتلال الأرض إلى تخريب الإنسان وتسخيف الكرامة الإنسانية.

٤- الدعوى الملحاحة إلى عالم أكثر عدلاً وتوازناً ليمسي من بعد أكثر أمناً واستقراراً.

٥- صرخة في وجه الاستبداد الداخلي والفتن والبؤس ومصادرة الإرادة والإستتباع للهيمنة الأجنبية.

قضية/ قضايا الإستنهاض هذه هي الدلالات المكثفة لدال ومدلول اللافتات والشعارات التي رفعها ونادى بها المحتجون المسلمون في كل مكان بصوت واحد تقريباً.

فعل الاحتجاج العارم هذا كان إذاً انتباهة وعي حبيس بالأخطار والتحديات والمظالم التاريخية عاد فيه المسلمون إلى اعادة اكتشاف أنفسهم والإنتباه إلى ما يمتلكونه من قابليات قوة وقدرة واقعيتين وممكنتين. ولما آنسَ المحتجون ارتخاء قبضة الغرب وظهور مؤشرات تراجع في مواقف كثير من الحكومات والنخب السياسية عن التشدد في رفض الإستجابة لمطالبهم وذلك من خلال الدعوات الغربية إلى «ضبط النفس» و «تفهم الآخر» وإلى «التفاوض» وإرسال المبعوثين بهدف التهدئة، عند ذلك راح المحتجون يرفعون سقف مطالبهم ويزيدون من حجم ضغوط المقاطعة الإقتصادية وتزخيم ردات الفعل إلى الحد الأقصى الممكن.

لقد تأكد المحتجون هذه المرة أكثر من أي مرة أخرى، من مدى فاعلية وضغط الشارع المسلم إذا تحرك بكليته في تحقيق المطالب «المستحيلة» أو حتى في الاقتراب منها، وأن من يواجهونه، أنى يكن، ليس خصماً لا يقهر بالمطلق، وأن الشارع الشعبي الأعزل، بوعيه وإرادته ووحدته، هو أيضاً،

يمتلك نقاط قوة تصلح لرد الاعتبار لإمكانية إحداث تغيير فعلي في موازين القوى في الصراع القائم والمستدام ولو في مواقع تكتيكية.

إنها واحدة من المرات القليلة في الأزمنة المتأخرة التي جرَّب فيه المسلمون في العالم استخدام واحد من أمضى أسلحتهم، واكتشفوا مفاعيله.. ولعلهم باتوا يدركون اليوم أنهم لو تحركوا وضغطوا إلى النهاية «بالسلاح» نفسه وحده وبذات الزخم، لأمكنهم نقل مطالبهم المزمنة إلى مرحلة دينامية جديدة، ولربما كان للصراع العربي/ الإسلامي الصهيوني نفسه موقع مختلف في اهتمامات العالم ومواقف الدول والشعوب اليوم.

لقد أثبت الحراك الاحتجاجي للمسلمين، وقد كان بمثابة عودة الروح إلى «الشارع العربي الإسلامي»، وذلك خلافاً لتوقعات الإستراتيجيين الغربيين والنخب المهزومة من داخلها في منطقتنا، أنه يمتلك الكفاءة والأهلية لتلبية احتياجات المشاركة الفعَّالة في الدفاع عن حقوقهم ومقدساتهم أينما وجدوا، على أن تتوفر بعض الشروط الضرورية، ولا نقول النموذجية، واللازمة لهذا الغرض. وقد توفر قسم منها في حدث الرسوم الكاريكاتورية عندما تساوقت وتآلفت مواقف الأنظمة السياسية والمرجعيات الدينية والمشاركة الشعبية العامة. مما يعني أن إسقاط أقنوم من أقانيم هذه الثلاثية مُفضٍ حتماً إلى اجهاض مفاعيلها أو خنق الحراك المشترك والمتكامل فيما بينها في المهد.

ذلك كله يطرح بقوة، تحقيقاً لهذا التكامل الثلاثي، مطلب التغيير الديمقراطي في العالم الإسلامي والعربي، تحريراً لإرادة شعوبه من كل عَنَتٍ

واستبداد وتلاعب، واسترداداً لقرارها الحر، وحتى يتحول أطرف الثلاثية إلى جسم واحد وجبهة واحدة خلف قضايا واحدة وانطلاقاً من رؤية موحدة.

ج- في سلبيات الاحتجاجات:

في العقود المتأخرة لم تعد تجربة الاحتجاجات الشعبية والعامة شأناً غير مألوف في غالبية بلدان العالم الإسلامي، وهي تسعى إلى نقد اجراءات ومواقف، أو رفضها، أو ترشيدها، أو للمطالبة بحق مضيع أو مهدور، أو برفع ظلم أو مظلمة واقعة، أو انتصاراً لقضية حق... وكما هي الحال أينما كان وفي مختلف الظروف، فإن فعل الاحتجاج، وإن كان متجهاً إلى هدف أو أهداف يرجو نوالها، لا يعني بالضرورة أنه بمجرد حصوله قادر على تحقيق الهدف/الأهداف المقصودة. فثمة جهة معنية بالإنفعال بالمطلب هي عامل مقرر فيه، أي بقبوله أو رفض تحقيقه. وهذا يعني أن الاحتجاج فعل صراعي بإمتياز يرتبط تحقق أهدافه بتوفير شروط مختلفة، منها ما له علاقة بالكيفيات والآليات، ومنها ما هو متعلق بالجهة المطالبة، أو بتلك التي يُوّجه إليها الطلب، ومنها ما يخضع لميزان القوى بين المُطالِب والمطالَب، أو ما يرتبط بالظروف الذاتية والموضوعية داخل الفضاء الذي ينفذ فيه الفعل الاحتجاجي... الخ. ثم أن الأهداف ليست كلها من طبيعة واحدة، ففيها المرحلي، وفيها التكتيكي، وفيها التراكمي التعبوي، وفيها أيضاً ما يمكن تحقيقهُ برمته دفعة واحدة.. ولكل

هدف من هذه الأهداف خططه وآلياته ومستويات الضغط الخاصة به واللازمة له. فإذا تحقق المطلوب النسبي للخطة المقررة، فالتحرك الاحتجاجي يكون قد أدى ما عليه وأنجز مهمته. أما إذا عجز عن ذلك كلياً أو جزئياً فذا أمر يرتب مسؤوليات ومساءلة لا تتعلق فقط بالتحرك نفسه، بل بمترتبات فشله وتداعياته المستقبلية، كما سبق لنا وأشرنا، وبخاصة عندما يتعلق الاحتجاج الشعبي بشؤون ذات طابع تأسيسي في حياة الناس ومعيشهم، أو بقضايا ذات طابع استراتيجي متعلق بضروريات وجودهم وتحولات اجتماعهم وبمصالحهم العليا.

والملفت في الحراك الشعبي في العالم الإسلامي والعربي عادةً أنه لا يكون شاملاً شتى الأقطار والبلدان إلا عندما تكون أجندته المطلبية واحدة ومطالب احتجاجاته موحدة، كما شهدنا على نطاق موصوف ومشهود في ردات فعل المسلمين على انتهاكات الرسوم الكاريكاتورية... وهذه الظاهرة قد تكون موضوعاً لجدل مفيد ليس هذا البحث مجاله المناسب.

هذا الشمول المطلبي لا يكون في العادة إلا متعلقاً بشؤون أو قضايا كبرى تأسيسية أو استراتيجية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: القضية الفلسطينية واحتلال أفغانستان واحتلال العراق.. إلى حدث الرسوم الذي أكدنا على أهميته نظراً لِنَزائه الرمزي ودلالاته التي رفعته إلى مستوى القضية الكبرى، وكلها ومن أجلها اهتز العالم الإسلامي

والعربي (بل والعالم بأسره إبان التحضير الأميركي لغزو العراق) بالمظاهرات التي عجزت، بحكم ما آلت إليه، عن تحقيق أهدافها الكبرى النهائية والمأمولة مباشرة. فلا هي كانت مثلاً الفيصل في التحولات التي شهدتها القضية الفلسطينية، ولا الاحتجاجات في العالمين الغربي والإسلامي بل وفي العالم، حالت دون الغزو الامبريالي لأفغانستان والعراق... لكن هذا الحراك الاحتجاجي الجيوبوليتكي المتعدد الساحات والأوجه نجح في تحقيق أهداف تكتيكية أو غير مباشرة محسوبة أو غير محسوبة من قبل المحتجين كالتعريف بالقضايا المعنية بالاحتجاج، وخلق مناخ ثقافي حولها وتأليب الرأي العام واستقطابه تأييداً لها... الخ.

في الاحتجاجات على الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية لم نعدم تحقق هذا النوع من الاهداف «التحريكية» وإن بشكل نسبي. إلا أننا نعتقد أن مطالب المتظاهرين والمحتجين وأهدافهم المباشرة المعلنة (اعتذارات، قرارات وقوانين روعية...) التي قلنا عنها في صفحات سابقة إنها دون حجم حراك المطالبين والمحتجين، قد جرى اجهاضها، أو تمييعها، أو الالتفاف والمساومة عليها، أو تبديدها مما يطرح علامات استفهام كثيرة. وبالتالي، فقد مُنيت الاحتجاجات على هذا المستوى «بفشل» بيّن، أو في أحسن الأحوال توصلت إلى نجاح في غير المباشر من المطالب، وبقيت بعض آثار المقاطعة الإقتصادية للسلع والبضائع التي تنتجها الدول المتورطة في الإهانات التي تمثلت في الرسوم الدانمركية. فهل انقطع حبل

الاحتجاجات في منتصف البثر؟. وفي رأينا أنه قد جرى على الملأ تضييع فرصة جديدة على المسلمين والعرب كان يمكن لهم من خلالها أن يؤسسوا لمرجعية اعتراضية مؤثرة وقادرة في حدود معينة على تغيير قرارات وممارسات أو تعديل وجهة مسارات غربية لمصلحتهم في المعادلة العلائقية المختلة والمزدادة اختلالاً بينهم وبين العالم الغربي.

وسواء صحت أخبرة Robert Mallay التي كنا أشرنا إليها سابقاً على مستوى المحصلات والنتائج التي انتهت إليها احتجاجات المسلمين، أم لم تصح بذاتها فإن ما آلت إليه الأمور أخيراً قد قاربت النتائج التي أشار إليها الرجل. ولعلها جاءت مضبوطة على ساعته بحساب ما آلت إليه.

في سياق آخر، كان للاحتجاجات، وهي في الأصل قامت انتصاراً لقضية من أنبل القضايا، أن لا ينزلق بعض منظميها، أو بمعنى أدق: بعض المشاركين فيها، إلى حيث تأخذ بهم انفعالاتهم الدفينة فتتفجر اعتداءات وعنفاً على الأملاك الخاصة أو العامة، وأحياناً على دور العبادة والكهنة المسيحيين[1]، فأساؤا أيما إساءة الى القضية السامية التي خرجوا من أجل الذود عنها، وشوهوا وجه التحرك الحضاري والسلمي لأقرانهم في مدن وأماكن أخرى، إلى درجة أن الإعلام العالمي ما نقل خبراً عن

---

١ - ذكرت جريدة «Le Monde» الفرنسية مقتل كاهنين في تركيا ونيجيريا وحدوث اعتداءات على كنائس في تركيا والفيليبين، اضافة إلى الصدامات المتفرقة «المعتادة» بين المسلمين والمسيحيين في بعض مقاطعات نيجيريا.
أنظر: Le Monde, Paris, 24/2/2006.

احتجاجات المسلمين اللاحقة، إلا وأرفقه بروايات ومشاهد مبالغ فيها عن ما سماه «العنف الإسلامي»[١].

لقد قدمت هذه الأفاعيل التي ارتكبها شبان في حالة غضب هستيري حجة قوية وفرصة ذهبية لليمين المتطرف المعادي للأجانب (Xénophobes) ولمناصري ايديولوجية «الاسلاموفوبيا» وللنخب السياسية الموتورة في الغرب للإنقضاض على الحراك الاحتجاجي الاسلامي والنيل من أشكاله ومضمونه وتبخيسهما. ووجدت الحكومات الغربية ضالتها في حوادث العنف تلك لتقيم نوعاً من التعادل المضلِّل بين «خطأ» الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية و «خطيئة» استخدام العنف من قبل بعض المحتجين المسلمين. فما خلا، من بعد، تصريح لمسؤول غربي في استنكار إهانة مقدسات المسلمين من تنديد قاسٍ بلجوء المحتجين إلى الشغب والتخريب وممارسة العنف[٢] والعنف أكثر رسوخاً في الأفهام مما عداه.

لقد كان خطاب هؤلاء الرسميين الغربيين بمثابة كلام الحق الذي يُراد به باطل. فما كان أغنانا عن تقديم «سترات إنقاذ» لتعويم المواقف الرسمية الغربية من قضية الرسوم بعد أن دفعتها قوة اندفاع المظاهرات

---

١ - تعليقاً على هذه الاعتداءات صرح أمين سر دولة الفاتيكان الكاردينال Angelo Sodano وهو من كبار رموز الكرسي البابوية: «إذا كنا نقول ليس هناك حرية للإهانة، فإننا نقول للآخرين – يعني المسلمين – ليس هناك حرية لقتلنا» – (راجع: م.ن).

٢ - جريدة «Le Monde» الفرنسية – عدد ٢٠٠٦/٢/٤ (م.س).

والاعتراضات التي قام بها المسلمون في شتى بقاع الدنيا الى الميـاه. علمـاً بأن للسياسات الغربية خبرات تاريخية في اصطياد الـذرائع وتحويلـها إلى ضغوط على خصومهم بهدف ابتزازهم وانتزاع التنـازلات المجانيـة منـهم كمدخل يُشرع أمامهم الأبواب لفرْض ما لا حصر له منها لاحقـاً. وبهـذه الدلالات بات للغرب ايديولوجية خاصة بالتعامل مع مسألة الذرائع وقبل واقعة الرسوم بزمن بعيد.

وإن الإحتجاجات الشعبية، هي في مثابة بيـوت مـن زجـاج يـسهل تهشيم وجهها بحصاة –كما حال التجاوزات التي يتـورط فيهـا محتجـون هائجون وحمقـى فيلزمـون أمـة بكاملـها بـدفع الكلفـة المرتفعـة لتلـك التجاوزات وبتحمل أوزارها الإستراتيجية.

الفصل الخامس

الرسوم وردات الفعل الفلسطينية؛ النموذج الفلسطيني المؤتلف والمختلف دائماً

الرسوم وردات الفعل الفلسطينية

النموذج الفلسطيني المؤتلف والمختلف دائماً

لطالما كان الفلسطينيون «سيزيف» شعوب هذا الزمان، ففي زحام الآلام المستحكم بوجودهم منذ عقود وَصَفُّ العذابات المستديم المنتظر ما يزال عند أبوابهم طويلاً، داهية تمضي وداهية تحل وأخرى تنتظر، وما طأطأوا الرأس ولا انحنت لهم أعناق ولا أعناق، وما بدلوا تبديلاً. وفوق صخراتهم الدينامية الأثقال – أما للمآسي ديناميات أيضاً؟ – وكل أحمالها الدنيوية كأحوال يوم الحشر الأعظم يفر من أهواله كل مكلف، فلكل امريء يومئذ شأن يغنيه، عدا أهل فلسطين.. نقول فوق أثقال صخرات جلجلتهم، ما استحلوا الفرار أو التهرب من أحمال أمتهم والنوازل التي تضربها بلا انقطاع.

وكم كانت كبيرة دهشة العالم وهو يرى الشعب الفلسطيني يزامن بين دفن شهداء المذابح الصهيونية، وكفكفة الدموع والتبرع بالدم وتأمين الأغطية والقوت للمشردين الجدد من جهة، وبين الخروج عن بكرة أبيه يحتج على اعتداء وقع على الأمة، أو امتهان حدث، أو حق اغتصب، أو

كرامة انتهكت، من جهة أخرى. لكنه «جنون» الفداء.. الجنـون الرائـع... كلما أوغلوا في دماه، أوغل هذا الشعب في البأس... وكلما ثلموا في الأمة ثلمةً هب للغوث لا يشغله شاغل عن شاغل.

شعب فلسطين هذا هو شـعب الموازنـة بـين الأوزار أنى تكـن، وبـين الاعتقاد... بين القضية الكبرى والتبعات الكبرى.. وهذي «تجـارة» إلهيـة يرجونها... التجارة الناجية[١]... التي لن تبور بقول القرآن[٢].

إضافة إلى حضوره المتماهي في قضاياه اليومية المباشرة، وعلى مـدى الجهاد التاريخي للشعب اللبناني ومقاومته العظيمة للاحتلال الصهيوني، مـا أكثر ما نزل الـشعب الفلـسطيني إلى الـشارع، مؤيـداً ومباركـاً ومـدافعاً ومسانداً لمقاومة اللبنانيين... وإبان مقدمات وحـرب أفغانـستان كمـا في مقدمات وحرب العراق.. والمشاركة الفلـسطينية المـؤازرة لقـضايا الأمـة وذوداً عنها لمَّا تعيا ولمَّا تَهُن. لم تكن هذه المشاركة البتة حالة قادمـة مـن خارج، بل هي نماءٍ في الداخل والجواني، ومنهما تنضح وتتصعَّد.

الفلـسطينيون يعرفون، والمسلمون والعرب وأحرار العالم يعرفون أيـضاً أن كل ما هو على الأمة من ضغوط هو أولاً لفلسطين، وأن هذه الـسُحب السوداء كافة ستمطر بالمحصلة فوق ساح قضيتهم التاريخية، بالسلب كـان الأمر أم بالإيجاب، وأن الهجمـة الغربيـة «بداروينيتـها الـسياسية» علـى المنطقة، فلسطين هي لحمتها وسداها.. فَفلسطين مهبط كل النوازل، وإليهـا

---

١ - المعنى هنا صياغة من قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم..» - سورة الصف /١٠.

٢ - وهذا من قوله تعالى: «يرجون تجارة لن تبور...» - سورة فاطر /٢٩.

تدب جميع الجهات.. كأنما هذه كلها في حالة دفع ذاتي محسوب الهدف.

في الفقة ثمة تكليف عيني أو تكليف كفائي نَدْبي.. وكذلك الحال في حكم الجهاد: هو عيني أو كفائي – والعيني طبعاً مكتفٍ بنفسه إذْ ينطوي الكفائي فيه. أما عند الفلسطينيين فالعيني متماهٍ في الكفائي...والعكس صحيح أيضاً، حتى لا تكاد تميز هذا عن ذاك.. كالواحد هما أو بمثابته. وهذي إشكالية لطيفة، من لطائف الجهادية الفلسطينية تاريخياً، إنه الجهاد اللانهائي العابر للأشكال والنماذج.

عندما تداعت الأمة للإحتجاج والإنتفاضة على الامتهان الذي رمزت إليه الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية، هبَّ المنتفضون الفلسطينيون الدائمون ولبوا «دعوة أنفسهم» – كما المألوف في استجاباتهم. ففي مثل هذه الحال يُصبح الإنتفاض «فيضاً» – كما يقول العرفانيون... أنه الامتثال الفطري التلقائي الذي يَصَّاعدُ متدرجاً من الأعماق، كأنما هو الغريزة التي تتجاوز السياسة وتسمو عليها، لكنها لا تخرج منها... غريب هذا الجهاد الفلسطيني.. هو كل شيء في آنٍ معاً.

كانت فلسطين إذاً جامعاً مشتركاً لاحتجاجات مسلمي العالم وفيها. فقد كان مشهوداً وطبيعياً رفع العلم الفلسطيني فيها وحمل لافتات وترداد شعارات تلهج بفلسطين وبحقوق الشعب الفلسطيني وتندد بإسرائيل والصهيونية وحلفائهما، إلى جانب القضايا التاريخية الأخرى للمسلمين والعرب، مما كان للغرب في إحداثه أو الإفتتان عليه، أو صناعة مآسية أو المشاركة فيها، يدٌ أو سلطان.

كيف قرأ الفلسطينيون في الضفة وغزة ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية؟

صحيح أن المسلمين خرجوا في أربع جهات الأرض منددين بالإساءة إلى مقدساتهم، إلا أن الخروج الاحتجاجي للشعب الفلسطيني يحمل في طياته دلالات خاصة. فهو إلى التقافة والإلتزام التاريخيين بقضايا العرب والمسلمين، ومنذ تشكل السلطة الفلسطينية، كان ذلك الشعب يتلقى مساعدات مالية واقتصادية وانسانية هامة من الإتحاد الأوروبي بعامة، ومن بعض الدول المنضوية فيه بشكل خاص. كما تقوم على أراضي السلطة الفلسطينية بعثات دبلوماسية وثقافية وإنسانية للاتحاد ومراكز تمثيلية خاصة بتلك الدول، بينما يشارك الكثير من المتطوعين الأوروبيين والغربيين في مد يد العون والمساعدة وفي تقديم الخدمات لفلسطينيي غزة والضفة الغربية، وبضعة من هؤلاء سقطوا بأدوات القتل الإسرائيلية وهم يشاركون الفلسطينيين احتجاجاتهم وتحركاتهم الاعتراضية على الأفاعيل الصادرة عن المحتلين الصهاينة. وإلى ذلك فإن القضية الفلسطينية، ومنذ عقود، تحظى بتعاطف بعض هيئات ومنظمات وقوى المجتمعات المدنية الأوروبية، وحتى بعض الشخصيات الرسمية والبرلمانية في بلدان أوروبية كثيرة، وبخاصة داخل البلدان الإسكندنافية منها.

في ضوء هذه الخصوصيات العلائقية الفلسطينية - الأوروبية، يُشهد للفلسطينيين أن موقفهم في أزمة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية لم يكن سهلاً، وهم مهددون بقطع المساعدات الأوروبية عنهم، وبخسارة نسب لا يُستهان بها من التعاطف والتفهم الأوروبيين مع قضيتهم، وذلك في وقت

بروز الصعود السياسي للإسلاميين الفلسطينيين في الإنتخابات التشريعية الأخيرة، وهو عامل إضافي من عوامل تفكك العرى العلائقية الفلسطينية – الأوروبية السابقة ولو بنسب متفاوتة.

برغم دقة وحساسية هذه الإعتبارات استراتيجياً وسياسياً وإنسانياً، فإن الشعب الفلسطيني في الموقف من حدث الرسوم الكاريكاتورية المسيئة إلى نبي المسلمين (ص) تجاوز، ولو ببعض العسر، الحسابات البراغماتية الخاصة والمباشرة واحتمالات الانعكاس السلبي لخروجه محتجاً على فعلة أوروبية، على مصالحه، أو التهديد بها في الأقل. ولم يكن مستغرباً والحال هذه أن تصدر في الغرب إثر الاحتجاجات الفلسطينية تعليقات تنحو باللائمة على الفلسطينيين وتكيل لهم التهم، حتى أن ثمة من كتب: «كم هم ناكرو الجميل هؤلاء الفلسطينيون»[1]. فالمبادئ والقيم ليست في حسبان هؤلاء... المصالح والمنافع وتبادل المقايضات وحدها هي عندهم المعيار.. وأي معيار؟!.

لقد أجمع الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة على ما أجمع عليه مسلمو العالم إذن في اعتبار الرسوم الكاريكاتورية التي تمثل النبي (ص) مهينة لمقدسات المسلمين ومعتقداتهم الدينية ونددوا بها تنديداً شديداً، ودعت قياداتهم إلى احتجاج شعبي عارم وإعلان الغضب بالوسائل السلمية، مع الأخذ بالإعتبار أن الاحتجاج لم يكن ليكتفي بالتوجه إلى الرسوم بذاتها فحسب، بل إلى ما ترمز إليه من خلفيات أيضاً. كان محط

1 - Voir: Al – Bassri, Daoud - «Le Courrier International» - 9-15 Février 2006.

اجماع الفلسطينيين أيضاً أن الرسوم المنشورة هي جزء من «حملة دُبرت بليل للتشهير بالإسلام والمسلمين وتشويه صورتهم بعامة والإساءة إلى الفلسطينيين والقضية الفلسطينية بشكل خاص من قبل الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأميركية «ومن قبل الصهيونية العالمية»، وأنها حلقة من حلقات مسلسل «الهجوم الإمبريالي الغربي المستمر بعد الحرب الباردة على العرب والمسلمين» و «جبهته المحورية فلسطين»، ثم على العراق[1].

فيما يقارب الاجماع أيضاً نبه الخطاب السياسي في الاحتجاجات الفلسطينية أسوة بالمحتجين المسلمين الآخرين، وسواء منه المكتوب أو الشفوي، إلى أن ردات الفعل على الرسوم ليست موجهة ضد الشعوب الأوروبية والغربية، وإنما إلى حكوماتها ومؤسساتها السياسية.

في رأينا، تشكل هذه القراءة الفلسطينية في ظاهرة الرسوم وترميزاتها وخلفياتها وعياً متقدماً لطبيعة ما يجري في المشهد الدولي، وللتحولات الاستراتيجية التي جرفت النظام العالمي وحرفته إلى الإتجاه الخطر الذي يتخذه في هذه المرحلة. وقد دلّت مكونات القراءة وملامح المشهد العلائقي بين العالم الإسلامي والعربي وبين الغرب، كما رسمته ردات الفعل الفلسطينية على حدث الرسوم، على وعي حضاري وسياسي وفطنة

١ - العبارات المذكورة في توصيف هذه الوقائع وردت حرفياً أو بعبارات كثفناها نحن في بيانات وتصريحات كثيرة صادرة ما بين ١و٣ شباط/ فبراير ٢٠٠٦ عن جهات فلسطينية مختلفة تمثل أبرز اتجاهات الرأي في الضفة والقطاع: حماس، وفتح، والجهاد الإسلامي، والقيادة المشتركة لكتائب الأقصى، ولجان المقاومة الشعبية.

- راجع: جريدة Liberation الفرنسية،٢شباط/Fevrier 2006. والبيان الصادر عن رئيسة جمعية "دارنا" في نابلس السيدة سعدة سيف بتاريخ ٣ شباط/ فبراير ٢٠٠٦، وبيان رئيس بلدية المدينة السيد عدلي يعيش في التاريخ نفسه..

استراتيجية يتطابقان كلياً مع الوعي والتطورات السياسية والحضارية والإستراتيجية التي نطقت بهما وعبرت عنها احتجاجات المسلمين وتظاهراتهم مشرقاً ومغرباً. كأنما المسلمون والعرب في العالم يقرأون في كتاب واحد، مما لا يدع مجالاً للظن قط بأن الخصوصيات الفلسطينية الذاتية، وهي قاهرة وحمّالة أعباء طائلة، لم تحرف خط الرؤية الفلسطيني عن مساره التاريخي وعن استهدافاته الإستراتيجية. فهو ما انفك أبداً عن الانخراط الكامل في حراك أمته الإسلامية والعربية وفي مسارها إلى أهدافها الكبرى ما تعلق من هذه الأهداف بذاتيتها وهويتها كأمة، وما ارتبط بحضورها الإنساني والحضاري في الجانب الموضوعي العام، ولو في ظل كل هذا الإختلال المتحقق في موازين القوى الدولية لمصلحة المشروع الاستحواذي الغربي التاريخي وسَدَنَتِه في الظروف الحالية.

في الجانب الفلسطيني من ردات الفعل على الرسوم. لقد كان ملفتاً اجماع المنتفضين الفلسطينيين من شتى الإنتماءات على اعتماد هدف واحد لاحتجاجاتهم، وذلك خلافاً لتعدد الأهداف وتنوعها في الاحتجاجات التي عرفتها الأقطار المسلمة الأخرى، أو تلك التي استقامت فيها الدياسبورا الإسلامية. الهدف الموحد هذا.. هو: اعتذار الحكومة الدانمركية.

جدير بالملاحظة هنا أيضاً أن توحد الاحتجاجات الفلسطينية في الضفة والقطاع حول الهدف سبقه – كما أشرنا – آنفاً توحدها على تفسير ظاهرة الرسوم بأبعادها وخلفياتها المتنوعة.

بقياس ما كان مرجواً تحقيقه من الأهداف والمطالب، يمكننا الزعم – بتحفظ –، ومن خلال استقراء تجارب سابقة على المستوى الفلسطيني

الخاص، كما على المستوى الإسلامي والعربي العام، أن الفلسطينيين كانوا أكثر «واقعية» أو أكثر «عقلانية» سياسية من محتجي الأمة الآخرين. فعدا الخصوصية التي ميزت علاقاتهم بالأوروبيين وفيها ما فيها من حيطة وحذر وتحرج، لعلهم أدركوا بحكم تجاربهم التي لا تنقطع، أن موازين القوى الدولية وطبيعة الليبرالية الديموقراطية في الغرب تحول دون عبور المطالب والأهداف التي اختارها غيرهم إلى التحقق كلياً أو جزئياً، فاستحسنوا الاكتفاء بهدف الاعتذار الذي – هو أيضاً- لم تنجح التظاهرات والمسيرات، وحتى أعمال الشغب في فرض تحقيقه.

على هذا الهدف الواحد انتظم ايقاع حركة الإحتجاج الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، فنزل الناس إلى الشوارع حتى ملأوها بأعلامهم ولافتاتهم وشعاراتهم وهتافاتهم ومسيراتهم السلمية التنديدية. وكالعادة في مثل هذا النوع من الاحتجاجات جرى إحراق صور لرئيس الوزراء الدانمركي RASMUSSEN الذي رفض استقبال سفراء الدول الإسلامية ليبلغوه احتجاجهم، وأبى الإعتذار من المسلمين على ما ارتكبته يومية Jyllands Posten من خلال نشرها الرسوم الكاريكاتورية المهينة لنبيهم، ورفعت شعارات معادية للرجل مقارنة بينه وبين الرئيس الأميركي جورج بوش[1]. كما أحرق العلم الدانمركي والعلم النروجي وأعلام دول أوروبية أخرى[2].

---

1 - Voir: KOVACKS, Stéphane - «Le Figaro» - Paris, 2 Février 2006.

٢ – راجع وكالات الأنباء في ٣١ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٦.
وجريدة «Le Monde» الفرنسية ١ و ٢ شباط / فبراير ٢٠٠٦.

لكن بعض غُلاة المحتجين الفلسطينيين، والفلسطينيون يقولون: «إن هويات هؤلاء غير معروفة وإنهم لا ينتمون إلى أي تنظيم موجود»[١]، قاموا بعراضات مسلحة، فطوقوا ممثليات الاتحاد الأوروبي وحاصروها، بما في ذلك الممثليات الإنسانية والعاملة في حقل الإغاثة، وخطفوا ألمانياً لمدة ساعتين فقط، وصدرت تهديدات عن بعض التنظيمات تميزت بالقسوة والتلويح باستخدام العنف[٢] ضد العاملين الإسكندنافيين في البعثات الأوروبية وبعثات الأمم المتحدة[٣] العاملة في الأراضي الفلسطينية المحتلة... الخ، بينما دعت تنظيمات أخرى بالمقابل إلى عدم الرد على الإستفزاز الغربي بإستفزاز مضاد، وإلى الامتناع عن الانزلاق إلى التورط في الحاق الأذى بالأجانب الموجودين في الضفة والقطاع [٤]، حتى أن حركة حماس عَرّضت حماية المقرات الأجنبية والرعايا الأجانب بمقاتلين من بين صفوفها، وذلك برغم مشاركتها الكثيفة تنظيمياً وجماهيرياً في حملة الاحتجاج الفلسطيني الواسعة داخل أراضي السلطة الوطنية[٥].

ولقد كان ملفتاً أن تصدر أكثر الاحتجاجات تشدداً، إلى درجة التهديد الصريح باستخدام القوة ضد الأجانب، عن غير الإسلاميين الفلسطينيين، إلا أن هؤلاء الإسلاميين تميزوا بسلمية تحركاتهم ودعوتهم الآخرين إلى ضبط الاحتجاجات «المسلحة» والإنفعالية. ولعل أصل هذه

---

١ - سيف، مسعدة – (م.س).

2 - Libération (O.P.cit).

3 -Le Monde (م.ن)

٤ - راجع تصريحات السيد محمود الزهار لوسائل الإعلام العالمية في ٢٠٠٦/٢/٢.

٥ - (م.ن).

المفارقة عائد إلى أسباب تنافسية فلسطينية تتعلق بنتائج الإنتخابات التشريعية الأخيرة وتداعياتها في الداخل الفلسطيني[1].

كانت وسائل الإعلام والحكومات الغربية بالمرصاد لما اعتبرته «اعتداءات» فلسطينية على المؤسسات والبعثات الدبلوماسية والمنظمات الخيرية الأوروبية العاملة على أرض السلطة الوطنية الفلسطينية، كما اعتبرته «تهديدات بالقتل والخطف والإيذاء» وُجهت إلى الرعايا الأوروبيين.

كان من «الطبيعي» أن يتوجه التركيز السياسي والإعلامي الدولي إلى ردات فعل الفلسطينيين بالذات على واقعة الرسوم الدانمركية، بشكلها ومضمونها نظراً إلى الشأن المتميز الذي حفلت به قضيتهم عالمياً في العقود المتأخرة. كما كان من المتوقع أن لا تكون وسائل الإعلام والحكومات الغربية الا منحازة لمن يحتج الفلسطينيون على ممارساته. فهي غالباً في الموقع النقيض للموضوعية عندما يتعلق الأمر بقضايا المسلمين والعرب، ومواقفها محسومة سلفاً على طريقة معيار «المنعكس الشرطي» لبافلوف. فما أن يرن جرس إحدى تلك القضايا معلناً تقدمها إلى واجهة الحدث، حتى تنفتح الشهية السياسية والإعلامية الغربية للانقضاض عليها.

ما رأت وسائل الإعلام الغربية تلك من احتجاجات الفلسطينيين إلا جانب ارتكابات أولئك الشبان الغاضبين الذين انزلقوا إلى ممارسات تهديدية وعنفية من نمط بدائي واستعراضي استنكرها الفلسطينيون أنفسهم قبل غيرهم، فركزت – مثلاً – على مشهد مسلح واحد كان يقف أمام

1 - Voir : Boltanski, Christophe - «Libération» - Paris, 6 Février 2006.

المركز الثقافي الفرنسي في نابلس، وعلى مشهد آخر اصطف فيه يوم الخميس الواقع فيه ٢ شباط /فبراير ٢٠٠٦ بضعة مسلحين فلسطينيين لبعض الوقت إلى جانب الجدار الخارجي لمبنى يضم ممثلية الاتحاد الأوروبي في غزة محتجين ومطالبين حكومات الدانمرك وفرنسا والنروج بالاعتذار للمسلمين على نشر أو إعادة نشر الرسوم الكاريكاتورية.

ركزت وسائل الإعلام الغربية ومراسلوها ومحللوها أيضاً على ما أعلنته مجموعتان فلسطينيتان مسلحتان في اليوم نفسه من تهديد لرعايا الدانمرك والنروج وفرنسا، كما على خطف ذاك الموظف الأوروبي لساعتين اثنتين.

على مدار الساعة وعلى مدى بضعة أيام كان الرأي العام الأوروبي خاصة والغربي عامة مدفوعاً إلى الانشغال والانفعال تحت وطأة الضغوط التعبوية والتحريضية لهذه المشاهد المسيسة وغير الموضوعية بامتياز وبلحاظ السبب والمسبب. أما الحكومات الأوروبية فقد عثرت على ضالتها في تلكم التجاوزات فسارعت إلى تقديم الاحتجاجات وأطلقت التهم في كل اتجاه ضد الفلسطينيين وذكرت بالمساعدات التي كانت ما فتئت – حتى ذلك الحين – تتابع منحهم إياها. وأتبعت ذلك كله بالطلب إلى رعاياها عدم التوجه إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة وبخاصة المتطوعين الأوروبيين الراغبين في السفر إلى هناك. ولهذا وقع خاص وحساسية خاصة عند المواطن الغربي إذ تحذره حكومته من كون وجوده حيث هو يهدد حياته حتماً كما طلبت ممن كان موجوداً منهم هناك المغادرة. وسرعان ما دخلت هذه الإجراءات حيز التطبيق، إلى درجة أن

جمعيات وهيئات فلسطينية عديدة كانت تتعاون مع المتطوعين الأوروبيين وتستفيد من خدماتهم، قد بادرت إلى التصريح بأن المتطوعين العاملين في صفوفها أبلغوها رغبتهم في العودة إلى ديارهم، بينما اتصل بها آخرون كانوا قادمين يبلغونها اعتذارهم عن المجيء.

هكذا جاءت ردة فعل الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية على الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية. فإذا الشارع الفلسطيني هو نفسه في مناسبات اعتراضية مشابهة.

على صورته ومثاله المحمَّلين بتناقضاته وإلتزامه التاريخي والثابت بقضاياه وبقضايا المسلمين والعرب كانت الاستجابة للتحدي. ولطالما فرض على الشعب الفلسطيني دفع أثمان كبيرة لمواقفه المستلّة من صلب هذا الإلتزام. لكنه كان دائماً يعيد الكرّة، لا لأنه لا يعبأ بالنتائج، ولا لأنه يلبس الفرو مقلوباً – كما يُقال–، ولا لأنه من الجماعات المغامرة، بل لأنه عكس ذلك تماماً، فمرجعيته في اتخاذ قراراته هي من غير عالم وفضاء وجبِلَّة أولئك الذين انبروا لإتهامه بنكران الجميل وقلة الوفاء.

وبتلك الخلفيات الموتورة والمنهجية الذرائعية الفظة جرى تقديم مشهد الاحتجاجات الفلسطينية في مناطق السلطة الوطنية إعلامياً وسياسياً للرأي العام الغربي، مما انعكس مزيداً من السلبية في مواقف الغربيين وفاقم التشويهات المتقنة التي ضخت في وعيهم ومخيالهم عن المسلمين والعرب، بمن في هؤلاء الفلسطينيون الذين كانوا يتميزون ببعض الخصوصية في الغرب لجهة تعاطف بعض أوساط المجتمع المدني ونخبه مع قضيتهم تعاطفاً نسبياً، كما سبق وذكرنا. ومما لا شك فيه أن هذه التغطية السياسية

والإعلامية لحملة الاحتجاج الفلسطيني قد اختلست من رصيد القضية الفلسطينية في أوساط الرأي العام الغربي قسطاً لا تنبغي الاستهانة به ناهيكم بمفاعيله الإستراتيجية ذات المدى الطويل. وما شيده الفلسطينيون من تفهم ومساندة نسبيين بين ظهراني تلك الأوساط بجهادهم وتضحياتهم التاريخية المضنية كان يكفيه أن تذهب به ، أو ببعضه، خطايا فردية قد يقترفها بعض منهم تحت وطأة انفعال أو استبداد غضبي عابر، أو سذاجة أو مراهقة سياسية.ثم كيف لرأي عام بِقضّه وقضيضه أن يلتف بسهولة وسرعة على مواقف مبدئية وأخلاقية اتخذها بناءً على شهادة فُسَّاق أو رواية مضخمة أو دسيسة دبَّرها جاهل أو متجاهل، لولا أن ثمة فيه من يريد افتراس الضحية فاتهمها بتعكير مائه، كما تقول الحكاية الخرافية.

إن هذا «الإنقلاب» أو «التقلب» في مواقف وسلوكيات بهذه الأهمية لا يدع مجالاً للارتياب قَطُّ بأن العلاقات بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الإسلامية ما تزال هشة وسطحية إلى حد بعيد وعاجزة عن التحول إلى أفعال لا رجوع عنها. وأن ما بُذل من جهود تقاربية بين الجهتين إلى اليوم – وهو مُضنٍ وكبير – لَمّا يتوصل بعد الى ارساء ثوابت علائقية مشتركة ونهائية ومتفق عليها واقية من الصدمات وقادرة على الصمود في وجه اختبارات أهلية كمثل الرسوم الكاريكاتورية بالرغم من هامشيته إذا أُخذ بذاته.

عند هذه الهوة السحيقة من الوهن والتهتك والتلعثم المتأصلة، مازالت تقبع هاتيك العلاقات وترسف، «رافضة» المبارحة بكل «عناد».. ثمَّ كيف لمجتمع يفرّط بسهولة بمعاييره بقياس سلوكياته، أن يقيم علاقات صحية

ومستقرة بمجتمع /مجتمعات أخرى؟!، والطريف أنه يطالب – وهو في موقع السلطة والغلبة – المجتمع المغلوب بتطبيق تلك المعايير نفسها.. فأية مغالطة أخلاقية وسياسية هي هذه المغالطة؟!، ثم كيف لفرد أو جماعة أن يطالبوا بحقوق، هم أنفسهم يمنعونها عن الآخرين أو يسعون في سبيل ذلك؟!.

كان حراك الشارع الفلسطيني الاحتجاجي الذي ما جفت فيه دماء حفاته قط، وقد اختلطت أشلاء شهدائه بنقور جدرانه وأتربة ساحاته المعَفَّرة... كان هذا الحراك متفجراً بغضب دفين واشتعال مُدمَّى.. وقد فاق احتقانه «كل اقتدار ممكن على الضبط والصبر والتحمل»، كما ذهب إلى ذلك قول بعض المتعاطفين.. السبب/الرسوم كانت مطية التوجه إلى كل المسببات دفعة واحدة. في كل الإتجاهات انتشرت شظايا الاحتقان. ومع ذلك يُشهد للشعب الفلسطيني وهو في ذروة الإلتهاب الوجداني، مكلوماً بانتهاك حرمة رسول الله (ص)، أنه لم تسقط في احتجاجاته نقطة دم واحدة. وعلى ذلك أجمعت وسائل الإعلام كافة[1].

1 - Voir: "Libération", Paris 2/2/2006

الفصل السادس

قراءة في المستقبل العلائقي بين مسلمي العالم والغرب في ضوء تجربة الرسوم الدانمركية

قراءة في المستقبل العلائقي بين مسلمي العالم والغرب
في ضوء تجربة الرسوم الدانمركية

كان اختبار الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية فرصة مناسبة لجسّ نبض التجربة العلائقية الإشكالية والطويلة بين مسلمي العالم والغرب ولإختبار مناعتها ومدى تجذرها وثباتها. كان أيضاً سانحة للمراجعة والتأمل في محصلاتها والنتائج التي آلت إليها، وكلها تقول:

ليست الأحوال بين العالمين الإسلامي والغربي في خير البتة.

وإن استمرت على هذه الوتيرة من التباعد وسوء الفهم والتوجس والتربص فلن تؤول في نهاية المطاف إلا إلى المزيد من العداء والاضطراب، وربما إلى المزيد من الحروب التي قد تندلع في أماكن أخرى إضافية من العالم. وبالتالي فلا مصلحة حقيقية وسويّة للطرفين، ولا لأحد ولا للسلم والإستقرار العالميين في اللبث مرتهنين لتبعات الدفع الذاتي الذي تدور فيه الأزمة العلائقية المتفاقمة في آخر ما وصلت إليه من فصول التراجع والتردي.

قبل الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ كانت للإسلام في الغرب صورة نمطية أنتجتها الثقافة الإستشراقية والسياسات الكولونيالية التقليدية. فإذا هو دين مصطنع وتلفيقي يضع من أتباعه أناساً جبريين ماضويين. أما بعد ذلك التاريخ فقد نصبت للإسلام صورة نمطية إضافية أشد هولاً قوامها أنه مُوَلِدٌ دينامي للإرهاب، ومُشرّعٌ للعنف وإلغاء الآخر، وداعية إلى عقيدة شمولية أحادية كل من هم خارجها مكشوفون للاستباحة وللقتل والإبادة، وأيضاً بـ «تكليف ديني لا يستطيع رد قضائه أحد».

بنسختها القديمة الكلاسيكية كان من الصعوبة الكأداء بمكان تغيير الصورة أو تصحيحها، فصار اليوم يبدوان وكأنهما أشبه بمن ينشد مقارنة مستحيل نظراً إلى التعقيدات الكبيرة المضافة وغياب أو تغييب نقاط الإرتكاز التي تصلح للإنطلاق منها بجهود جديدة مشتركة لإعادة بناء أو ترميم ما تهدم من تلك العلاقات. فضلاً عن مهمات التصحيح للصورة النمطية التقليدية التي ما انقطعت الحاجة إليها قط برغم الجدوى المحدودة نسبياً التي كانت قد تحققت من خلالها قبل أيلول ٢٠٠١. إلا أن طرفي العلاقة المضطربة: مسلمو العالم والغرب، مضطرون موضوعياً إلى إبداع حلول ومنهجيات ووسائل إصلاحية وتصحيحية وتطوير صيغ علائقية قائمة، وذلك بهدف تطبيع ما هم محكومون به من علاقات مشتركة نتيجة ما آلت إليها محصلات التجربة العلائقية المتعثرة فيما بينهم من جهة، وبحكم التحولات والتغييرات التي طرأت على العالم في السنين الأخيرة بما في ذلك الممهدات التي هيأت لها وبخاصة إنتهاء الحرب الباردة واتجاه

النظام الدولي إلى السقوط في أتون الصراعات والحروب والإضطرابات التي يزرح تحت أعبائها بدءاً من الشرق الأوسط إلى أقاصي أميركا الجنوبية.

ثمة حلول كثيرة متوفرة للمأزق العلائقي الإسلامي الغربي، برغم ما يبدو عليه هذا المأزق من استحكام وانسداد أفق، وثمة أفكار تحسينية كثيرة «ملقاة في الطرقات» تَنْدَهُ الطالبين وتحفل به الأدبيات العلائقية.

أما الحلول فقد باتت معروفة لكنها أمست كالدواء الذي يتمنع العليل عن تناوله بانتظام وداب، وإن لَفِي الطرفين قوى حية وصادقة أكثر من أن تحصى ما انفكت عن ابداء سخطها ورفضها لما يفرض على العالم أن يصير إليه، وعن إرادتها واستعدادها للتصدي له ومواجهته بجهود مشتركة وحراك منسق وتكاملي بين العالمين. وهي تتطلع إلى عالم أفضل وإلى إقامة نظام عالمي أكثر عدلاً، وإلى سلام وأمن دوليين مستقرين ودائمين، إلا أن تلك القوى لم تتحول بعد إلى جبهة صد عالمية متماسكة ومنظمة ذات مشروع واضح ممكن التنفيذ وقادر على فرض مواقف تغييرية إيجابية. وإنْ بدا هذا الإقرار بتردي الأوضاع العلائقية «طوباويا» عند بعض الأنهزاميين في الظروف الحالية، فإننا بالمقابل نرى إلى أن الإستمرار في السياسات الجنونية الدائرة في العالم، هو الطوباوية بعينها، لأنه يعني إهداء الإنسانية إلى التذابح، وإطلاق فوضى الهمجية التي لن يسلم من نارها أحد، ولا خيار ثالثاً بين هذين الخيارين.

وإذا كانت العلاقة الجدلية التاريخية بين العالم الإسلامي والغرب هي

علاقة تصادم احتقانين مركبين وغير متكافئين كما سبق وبيَّنا، فلنسع بجهد مشترك ومخلص إلى تغيير موضوع الاحتقانين وإفراغهما من اختلاجهما التوتري التصادمي والاستراتيجي بحيث يتم تصويب وجهتهما نحو سوية حضارية. ولن يكتب لهذه العملية السداد إلا انطلاقاً من إحداث تعديل في النظرة إلى الآخر وإلى العالم وإلى العلاقات بين البشر، وبالتالي إلى ما بين الشعوب والأمم. مما يحتم بالضرورة رد الحقوق المنتزعة أو المغصوبة إلى أصحابها الشرعيين وإشعارهم بالأمن والإطمئنان إلى حاضرهم ومستقبلهم، والإقبال عليهم برغبة مخلصة في بناء شراكة حياة متوازية وحقيقية معهم، وإقامة سلام دائم تصونه مرجعيات مشتركة متفق عليها بعيداً عن أي هيمنة أو تهديد، في نسق علائقي سوي قائم على الثقة والإحترام المتبادلين ونظرة مشتركة وموحدة إلى المستقبل.

وفي معادلة الغالب والمغلوب الراهنة، أحرى أن تكون الخطوة الأولى صادرة عن الغالب المتسلط، لامن المغلوب على أمره، أي من القادر على المبادرة، لا من المستضعف العاجز الذي استُنزف حتى أمسى غير قادر إلا على التلقي والارتداء دائماً إلى خانة الدفاع الذي لا تتوفر له دائماً شروط المناعة والصمود.

ثمة نظرة مغايرة إلى العالم مطلوبة أذاً، وهو الذي يعج بستة مليارات إنسان لا يمكن، ولا كان ممكناً قَطُّ، أن يخضعوا فيه لسلطة واحدة، أو لمنظومة حضارية أو ثقافية واحدة.

أما على مستوى العلاقة بالآخر فذلك يقتضي في رأينا العمل المتوازي من خلال نسقين متزامنين من الجهود المشتركة: نَسق معرفي وأخلاقي ونسق سياسي. الأول يصحح صورة الآخر وينظفها مما رميت به من أدران الجهل والأوهام والتشويه والإزدواجية المعيارية والتعصب من خلال مراجعة نقدية ومعرفية شاملة في المنهج والعلم وفي الوعي وفي الأهداف والتصورات، أما الثاني فيسوي بين المصالح المشتركة ويعدل في الحقوق والواجبات كلها من خلال مراجعة نقدية سياسية موازية لتاريخ العلاقات بين المسلمين والغرب... وعندها يمكن لصفحة علائقية جديدة أن تفتح، وذلك يستدعي جهوداً كبيرة وبرامج وآليات ومؤسسات منظمة ومواكبة وراعية... وقبلها جميعاً يحتاج إلى إرادة مصممة مشتركة على الاعتراف بالآخر كشريك مختلف وكامل الحقوق. وكلها يحتاج إلى كلام كبير وكثير ليس لهذه الورقة أن تخطو فيه، فهي كانت لشأن آخر هو عنوان ورمز لأزمة علائقية مستفحلة سعينا إلى تشخيصها وتفكيك مكوناتها وتحليلها بهدف تكوين مشهدها الصحيح والموضوعي حتى يتبين فيها الرشد من الغي. وها نحن ندعو إلى تدارك الأسباب بالمداواة والإصلاح لا بتقليب العوارض والأعراض والتأمل فيها وحدها. والرسوم الكاريكاتورية الدانمركية ليست في الاسباب في كل حال.

أما إذا تعذر تأمين نصاب النسق السياسي، أو أعيق قيامه من قبل المؤسسات السياسية القائمة، فلا ينبغي اطاحة النسق المعرفي والأخلاقي والتخلي عنه، فلا يعقل ترك أمور العالم متخبطة وسائرة على عواهنها،

وعلى هذا النحو السائد من التهافت وتقاذف المسؤوليات والتبعات.

بمعنى آخر نقول: أنه لا ينبغي لنا انتظار حل المشاكل السياسية الحالية التي ما انفكت تتفاقم، إذْ يمكن، والحال هذه، أن يكون المدخل الملائم إلى علاقات أفضل بين العالمين الإسلامي العربي والغربي هو عن طريق المجتمعات المدنية فيهما، وذلك من خلال خلق نسق جديد من الرؤى الفلسفية والمعرفية والأخلاقية، تنتج عنها وسائط تعارفية سوسيولوجية صحيحة وبديلة عن التضليل الإعلامي والسياسي والإستنتاجات العشوائية أو الشعبوية، وعن الاختزال التبسيطي والنمطي للآخر وهي السائدة اليوم.

على أن هذا «الاستبدال» المعرفي والأخلاقي لا يعني بالضرورة تهميشاً لدور السياسي أو فصلاً بينه وبين غيره من الشؤون، بل القصد هنا أن تصبح السياسة بين أطراف انداد، لا بين مستكبر وملغى سلفاً، كما سبق ونوهنا. فمع الاعتراف بمنظومة المصالح يمكن للسياسة أن ترتقي من عبثية الموت لتغدو أمَّارة بحب الحياة وصيرورة مستقبلية أفضل، كما لها أن تغدو مُعينة على تشكل وعي «كوني» بنَّاء واقترابي من الآخر دافعة على استكناه أفضل السبل لمعالجة علل العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية ومعضلات التخلف والتفاوت الهائل في النمو الذي تشكو منه البشرية.

وكم تبدو هنا ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية فعلاً باهتاً ومشاكساً، لوقيض للتحديات العلائقية بين العالمين الإسلامي والغربي

الارتقاء إلى هذا المستوى من الشواغل الإنسانية الكبرى والإحيائية الملحاحة والدينامية ولمصلحة الناس جميعاً.

إن ما يحدث اليوم في العالم لا يدع مجالاً للتوهم بأن أي إضرار بالآخر لن تسلم الذات المتسببة بالضرر والعدوان من تبعاته، وبأن الظلم حيث يقع، فإنما هو للبشر كافة.

في مقابل هذا كله نعلم بأن كثيراً من منابر المؤتمرات والندوات وحلقات البحث كما الكثير من الكتب والدوريات ووسائل الإعلام التي تختص أو تهتم بالتقويم والتقييم العلائقي هي حافلة بهذا النمط من التوجهات المنهجية التقاربية والمبدئية التي لا نراها إلا صحيحة، إلا أننا نعلم أيضاً بأنها قلما أخضعت للتطبيق العملي الناجح غالباً مما أضعف مواقف وحجج الداعين إليها وعينهم في خانة «المنظرين المثاليين». وفي ظننا أن في رأس أسباب تعثر أو تعطيل محاولات التقريب والتقارب هذه، هو اعتصام القوى الدولية المستكبرة بغلبتها الحضارية والسياسية وتشبثها بالسير قدماً في مشاريع الهيمنة العولمية والأمبريالية التي اختطتها وتجهزت لها بأحدث تكنولوجيات القوة والترهيب، بينما تقوم في مواجهتها «جبهة» متهالكة من الخصوم المستضعفين المتفرقين والمشتتين في شتى بقاع الدنيا ممَّن لم يتجاوزوا في آدائهم الإعتراضي بعد برنامج ردة الفعل وتفجير الغضب وإعلان التنديد بكل هذا الظلم الذريع الذي يعصف بالإنسانية وهم محقون في مبدئية الموقف، من غير أن يقووا حتى الآن على وقف جموح ذلك الظلم وتماديه واستشرائه.

إن ما لا ينفذ من الأفكار، أو ما يساء تطبيقه أو العمل به منها، لا يعني بالضرورة بطلانه بكليته. ولا يبدو حتى تاريخه أن البشرية قادرة بغير تلك الأفكار على الخروج من هذا النفق المظلم والعودة من حافة الهاوية التي يدفعها إليها أصحاب الرؤوس الحامية والغلاة في أيٍ من العالمين كانوا: في العالم الإسلامي أم في الغرب. فالسياسي المتسربل بإيديولوجية المصالح المعتنق لعقيدتها والمستلب لها، هو الذي يطبق على من وما عداه ويأخذ بناصيته أو يحاصره ويشتت قدرته على الفعل والتأثير والتغيير، وذلك بحكم الاختلال الاستراتيجي الكبير القائم بين الطرفين منذ قرون.

وما يصح – منهجياً – لإصلاح العلاقات بين العالمين الإسلامي والغربي أحرى به أن يكون صحيحاً أيضاً بين أهل الغرب وبين مواطنيهم الآخرين من المسلمين الغربيين أنفسهم.

وإنه لمن الأهمية بمكان التنبه إلى أنه يتعذر موضوعياً من وجهة نظرنا نجاح أي استواء علائقي بين الأقليات المسلمة ومواطنيهم من غير المسلمين، مادامت العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب على هذه الحال من الاضطراب والتوتر. وكل محاولة تدامج أو اندماج للمسلمين في مجتمعات الدياسبورا الإسلامية ستبقى منتقصة ومتعسرة وجزئية ما لم تصحح وتستقر العلاقات بين مجتمعات العالم الإسلامي وبين تلك المجتمعات بما فيها مؤسساتها السياسية. وأي اصلاح أو ترميم أو تحسن يمكن أن يطرأ على هذه العلاقات، سينعكس بالضرورة ايجاباً واستقراراً

داخل المجتمعات الغربية نفسها. وما دامت بلاد المسلمين عرضة للهجوم الغربي المتعدد الأشكال والأنواع، ومادام الغرب سنداً لمغتصبي أرض فلسطين أو متواطئاً معهم، فسيكون من غير السهل أن لا تتعرض العلاقات بين مسلمي الغرب وأقرانهم من المواطنين هناك للإهتزاز والتصدع. ولا نبالغ إذا قلنا إن فشل تجارب ادماج المسلمين في المجتمعات التي هاجروا إليها يعود في قسم كبير منه إلى الارتكاس العلائقي المزمن بين بلدانهم الأم والبلدان التي حلوا فيها، وهذا شأن قلما يوليه علماء الاجتماع الغربيون، وهم يدرسون مآل اندماج او تدامج المسلمين بين ظهرانيهم، القدر اللازم من الأهمية والتدبر.

ولا يجادل أحد فيما يذهب إليه بعض علماء الاجتماع والأنطروبولوجيين الغربيين من قول: إنه لا ينبغي للأقليات المسلمة في الغرب أن يتحول أبناؤها إلى مجرد «وكلاء حصريين» يستوردون الصراعات إلى قلب المجتمعات التي احتضنتهم، أو إلى مندوبين في المهجر ناطقين باسم مشكلات بلدانهم الأم، أو إلى ما يسميه Olivier Roy: «رهائن لقضايا الشرق الأوسط»[1].

... نعم لا يجادل أحد في صحة ذلك. لكن ما لا ينبغي الجدال فيه أيضاً ان هؤلاء المهاجرين المسلمين لا يتعاطفون مع قضايا بلدانهم وحقوقها لأنهم جزء من «الأمة الإسلامية» فحَسْب، بل لأنهم أيضاً، قبل

1 - Roy, Olivier - «Le Monde» - Paris, 8/2/2006. (O.P.cit).

ذلك وبعده، مكلفون بموجب شريعتهم واعتقاداتهم الدينية بمناصرة قضايا الحق والعدل والحرية في كل مكان وزمان، بتنزيه كامل عن أية عصبية دينية أو عرقية أو اثنية تتعلق بهم أو تتصل بغيرهم. فلا يمكن لمسلم شرعاً أن ينصر مسلماً آخر في باطل أو إثم أو اغتصاب أو ظلم. وبهذا المعنى يتخذ معنى «الأمة الواحدة» القرآني بعداً أخلاقياً وإنسانياً واستراتيجياً، حتى ولو صح أن الآيتين القرآنيين الوحيدين اللتين أوردتا هذه التسمية[١] قد قصدتا بها «أمة المسلمين» كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، بينما رأى غيرهم أن الأمة المقصودة بالآيتين ولا تعني «ملة المسلمين» بل «النوع الإنساني»[٢] برمته أو البشرية جمعاء، والمعنى الأخير عندنا هو الأصوب. وبالتالي، فإنه لمن قبيل التبسيط الزعم بأن المسلمين محكومون بنعرة /عصبية الإنتماء إلى أمة المسلمين بموجب تكليفهم الديني وفي جميع الأحوال والظروف[٣].

فكيف للعلاقات بين المسلمين أينما حلوا وكانوا وبين العالم الغربي أن تستتب بينما يتعرض الإسلام كدين عالمي وكمشروع حضاري لحملات التشويه والتجني والتحامل يومياً من خلال تقديمه على غير حقيقته وعَبْرَ

---

١ - الآيتان الكريمتان هما:
- «إنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» - سورة الأنبياء — ٩٢.
- «وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» - المؤمنون ٥٢.

٢ - الطباطبائي، السيد محمد حسين «الميزان في تفسير القرآن» - المجلد /١٤ -ص/٣٢١ — ٣٢٢، والمجلد ١٥، ص/٣٥.

3 - Voir: Etienne, Bruno - «L'Islam radical» - P.P. 95-96, et : Lewis, Bernard – (O.P.cit).

أخذه وكل معتنقيه بجرائر وممارسات ليست منه ولا تمت إليه بصلة، فترمى اعتقاداته بكبائر التهم ويجري التجديف عليها بدون أي تدقيق علمي من خلال تعمد إظهاره كنسق دوغمائي مناقض للحضارة والتنوير وكدين للظلامية والرجعية والجنوح إلى العنف، أو كشريعة ذكورية تستذل المرأة وتستعبدها، أو كثقافة ديدنها نفي الثقافات الأخرى. كما من خلال تعميم صورة المسلم كإرهابي، بينما الإرهاب بمفاهيمه المتداولة والممارسات هو خارج دائرة الإعتقادات والأفكار الإسلامية أصلاً، وهي التي تعتبر الإنسان غاية ومحوراً للوجود، وتتطلع إلى الرقي به إلى الكمال المطلق.

إن «إشكالية الإرهاب» هذه هي أحد أبرز عناوين الإلتواء العلائقي القائم بين العالمين الإسلامي والغربي. فمسلمو العالم مثلاً مأخوذون دائماً بالصدمة والإستهجان وهم يشهدون كل هذا الصخب السياسي والقانوني والإعلامي والأمني المنظم الذي تثيره جهات معروفة في الغرب فيما يتعلق بقضيتين، هما مشروعتان من وجهة نظرنا، لا يجوز أن يختلف في مبدئيتهما عاقلان: نعني تحديداً: حق مقاومة الاحتلال الأجنبي، ومنع الاعتداء على المدنيين وإرهاب الأبرياء، وكلاهما نصت عليه الشرائع الإلهية والقوانين الدولية. وكل محاولة للخلط بينهما، أو الإختباء خلف أحداهما للنيل من الأخرى هي بمثابة التجديف القانوني والتضليل السياسي. وإذا كان العالم منهمكاً في السجال حول هاتين القضيتين الخاضعتين أساساً لقانون السببية، فإن الأجدر تفهمهما التوجه أصلاً إلى الأسباب لا إلى النتائج

وحدها، وإلى الأفعال لا إلى ردات الفعل عليها فقط، لأن الإستغراق في مساجلة النتائج لا يعين على وعي المشكلة المطروحة ، ولا على تبين الحكم الصحيح والعادل، فنكون، والحال هذه، كمن يساجل في قضية زائفة، أو ما يسمى بالفرنسية:Faux Problème.

وإذا كان الأمر في القضية الأولى: حق مقاومة الاحتلال، جلياً ومباشراً ومفهوماً لجهة كون منع الاحتلال نفياً للوازمه، فإنه في القضية الثانية: أي منع الاعتداء على المدنيين وارهاب الأبرياء، شأنٌ بالغ التعقيد، إذ تتداخل فيه الأسباب التي تتراوح بين الأخلاقي واللا أخلاقي، وبين التقليد التاريخي والإيديولوجي، وبين ثوابت التراث الحربي ومعاييره، وذلك وصولاً إلى أحداث تعديل في خلل قائم في موازين القوى، أو بهدف إلحاق الهزيمة بالعدو، أو ردعه، أو معاقبته، أو معاملته بالمثل، أو حتى من أجل تجريب أسلحة جديدة واختبارها فيه، كما يحدث في فلسطين مثلاً. فهذا الكمُّ من العداء والكراهية سيحيل الخصم، موضوع هذه الممارسات، إلى كتلة متراصة تستميت في الدفاع عن ما تعتبره: وجودها.

إن تشخيص الاسباب الحقيقية والموضوعية للجوء إلى القوة والعنف، مُقرّرٌ أساسي وبنيوي في بيان الحكم الملائم له أو عليه. إذ قد يرتفع الأمر من مستوى الظاهر، أي ممارسة الفعل الإرهابي غير المشروع، إلى مصاف الفعل المقاوم المشروع والطبيعي الذي لا تجوز إدانته ولا يسوغ العمل على احباطه بأي وجه.

وفي كل حال، إن متابعة متسلسلة للأسباب والدواعي لاستخدام القوة

من بداية تكوُّن الأسباب والدواعي إلى منتهاها، موصلة بالضرورة إلى منشأ واحد هو: ارتكاب الظلم والعدوان وردة الفعل عليه. وبهذا المعنى لا يحتسب من العدالة في شيء تنزيه المرتكب أو التغاضي عنه أو اصطناع المبررات له وتركيب الحجج المضللة لمصلحته مقابل الاكتفاء بتغريم الضحية والعمل على تجريدها حتى من حقها المشروع في الدفاع عن نفسها.

إن الوقوف إلى جانب المعتدي أو المحتل بأي شكل أو صيغة، سواء كان صادراً عن جهل أو عن قصد، هو بالمحصلة إمعان في الظلم، ولن يفضي إلا إلى المزيد من الجنوح إلى العداء والتكاره والبغضاء واستفحال المآسي، ناهيك بكونه تورطاً في الجناية المرتكبة بكل ما تحمله من تبعات قانونية وسياسية وأخلاقية وإنسانية. وما الإتهام العشوائي للإسلام بتخصيب الإرهاب أو توليده سوى صورة من صور الإطباق على الضحية والتعمية على هوية وفعل القاتل أو المعتدي.

إن الصورة المرسخة والمعممة للإسلام في الغرب وبخاصة في السنوات الأخيرة هي نقيض الحقيقة بكل المعايير. ومن أسفٍ أن بعض أفاعيل المسلمين، بإدراك من هؤلاء أو بضلالة، لا تني عن النفخ في كيرِ أصحاب المآرب ومحترفي السياسة ودهاقنتها ومرضى الفطرسة الحضارية ودعاة التمييز الديني أو الإثني أو العرقي في الغرب، ناهيك بالجهلة الكُثُر منهم.

أما على مستوى الذات الإسلامية فإن السوية الحضارية التي كنا أشرنا إليها آنفاً بنسقيها المعرفي الأخلاقي والسياسي الضروريين لإستقامة

المعادلة العلائقية بين العالم الإسلامي والغرب، والمشفوعين بإرادتيهما وجهودهما المشتركة أي بعمل مشترك بين الذات والآخر ... هذه السوية لا بد لها حتى تترشد وتتثبت صدقيتها ويصلب عودها وتحفظ استمراريتها، من أن تتأسس على وعي وإرادة وقناعة جادة لدى المسلمين بضرورة التوجه المنهجي إلى الداخل هذه المرة لا إلى الخارج فحسب، وذلك من خلال المبادرة إلى القيام بعملية إصلاح ذاتي شاملة تعيد تأهيل ذاتهم الحضارية بحيث تتشكل صورتها السياسية والثقافية والحضارية بشكل مغاير ومختلف عما أضحت عليه في السنوات المتأخرة. فإصلاح صورة الإسلام والمسلمين في مخيال الآخر وفي وعيه ما لم يتأسس على إعادة الإتجاه نحوه بنمط مختلف ونوايا مختلفة فلن يكون مقنعاً له بسهولة بعد كل هذا الزمن المتطاول من التوجس والتشكيك والخوف. فما يتطلبه المسلمون من الغرب من تقدم مختلف ومن تحول جذري حيالهم يكسران النمطية الكلاسيكية، يحتم عليهم – بالمقابل – تقديم أنفسهم خلاف ما ترسخ لديه عنهم، والا ظلت بواعث الشك لابثة فيهم واستمرت الصورة مهزوزة وعوامل التواثق متهافتة.

إن تجديد تقديم النفس للآخر يستدعي في رأينا أولاً إجراء جردة حساب نقدية ذاتية للنهج العلائقي السابق / (الحالي) بهدف وعي وتصحيح أخطاء الماضي والتجارب العلائقية السابقة في الرؤى والمفاهيم والممارسات والمواقف من الغرب مهما تكن. على أن يستتبع ذلك، أو يزامنه، بثلاث انتفاضات متلازمة على الذات تسابق الزمن الذي بات

عبور المسلمين فيه وهم خارجه، وبالتالي خارج التاريخ مكلفاً، بل شديد الكلفة على كل الأصعدة.

أولاً – الإنتفاضة الأولى:

انتفاضة فكرية ثقافية يعيد المسلمون من خلالها الاعتبار لمشروعهم الحضاري التقدمي والدينامي الذي تكاملت فيه ثلاثية المقدس والعقل في تواكب لصيق بالحياة والتطور وتحولات الإجتماع البشري، وأنتج منظومات معيش ونماذج لمجتمع تعددي متكامل ومتوازن ومستقر. لقد خاضت الجماعة المسلمة، من خلال نظريتها الكونية التوحيدية / مشروعها الحضاري تجارب علائقية تاريخية مع شعوب وأمم كثيرة مجاورة، أو متنائية، وذلك بدءاً من العلاقات التفاعلية البناءة مع الثقافة والمدنية الفارسيتين، مروراً بالثقافات والمدنيات العريقة الأخرى لبيزنطة واليونان والهند والصين، وصولاً إلى التجربة التعددية الرائدة والمتفردة في التاريخ التي عاشها المسلمون في الأندلس أبّان القرون الوسطى. وما هذي التجارب سوى نماذج ثرّة تنبئ بما لا يدع مجالاً لمتشكك بالمستوى المتقدم للعقلانية والمرونة والإنفتاح التي تميز بها المشروع الحضاري الإسلامي وهو ينسج شبكة علاقاته الإعترافية والتعارفية والتفاعلية مع الجماعات الأخرى. فكانت تلك التجارب مجالاً حيوياً لتجدد ذاتي خلاق وشراكة إغناء متبادل مع الآخر أسهما أيما اسهام في دفع المسلمين إلى انجاز ابداعات فكرية وفقهية وسياسية واجتماعية مكنتهم من حسن التدبر والتكيف والتأقلم بحكمة وعقلانية مع الخصوصيات الجيوسياسية والدينية

والإيدلوجية والثقافية للمجتمعات التي شاركوها عيشها ومعيشها وصيغ حياتها في تنوع ضمن الوحدة نموذجي.

إن من يملك رؤية حضارية أو مشروعاً حضارياً على هذه الدرجة من العالمية والرقي والتدامج مع الآخر، والاعتراف به واحترام خصوصياته والتكامل معه، حريٌ به أن يعتبر بعبر هذه التجارب الريادية ودروسها من غير أن تصيبه خيلاء استعادة او أوهام استنساخ تلك التجارب نفسها مهما بلغت عظمتها وريادتها في زمانها. فلا استنساخ ولا تكرارية في التجارب والخبرات العلائقية التاريخية، ما خلا فوائد ومكتسبات الاعتبار والتفكر والاهتداء بمثلها وسننها والقوانين. فإحدى أبرز ميزات الحضور الديني في حياة الجماعة المسلمة أنه حضور أماميٌ تقدمي وتجاوزي. بمعنى أنه لا يختصر اتساع الحياة بنماذج متيبسة ونهائية. وعلى ذلك استرشدت التجارب العلائقية التاريخية للمسلمين بديناميات الإسلام نفسه لتنمو وتتطور، واستناداً إلى ثبات مبادئه وقِيَمِه ومطلقيتها. وهذي مفارقة حضارية رائعة تحسب للإسلام لا عليه، وتشهد على حيويته لا على جموده، ولذلك قيل: إن الإسلام دين حركي ينبض بالزخم والدفع والحيوية[1].

فما أحوج المسلمين وهم في عسر حراكهم التاريخي الحالي وبطئه إلى أن يرتدوا عن الرحيل السهل الى استرجاع ماضٍ ثبت أن المستقبل لن

---

١ - المطهري، مرتضى: «إحياء الفكر في الإسلام» - ص.ص /٣٧-٣٨ و ص/٢٥.

يكون على شاكلته، وأن لا تبقى نظرتهم إلى هذا المستقبل الذي يقرع أبوابهم كل لحظة طارحاً الأسئلة والتحديات عليهم بما لا يحصى من الأمور والمستحقات، حسيرة حائرة، تنخرط في تحديات حضارية لا تمتلك في مواجهتها نماذجها الخاصة المعاصرة والمكتملة والمقنعة، ولا تحمل بيمينها ولا بيسارها إجابات واضحة وناجزة عن الكثير الكثير من تلك الأسئلة الكبرى المطروحة عليها.

إن العالم ما انفك يتغير ويتدبل.. لكأنه بات في العقود الأخيرة يتنفس تحولات كبرى ويطر أطروحات جديدة شديدة التعقيد وفائقة السرعة في كل المجالات، وما لم يفلح المسلمون بإسلامهم كدين وكمشروع حضاري وبعقولهم واستنارتهم تلمس تضاريسها ومنعرجاتها والانخراط ايجاباً في تفاعلاتها وبمستوى التحديات التي تطرحها، فإنهم لمقبلون على المزيد من الاهتراء الداخلي وعلى ابتدامات ما أنزل الله بها من سلطان. «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

في أسس الإنتفاضة الفكرية الثقافية التي نرى إليها، وبعدما شهدناه ونشهده من تخلف ومسخ على مستوى الكثير من المفاهيم الدينية والعلائقية والثقافية السائدة في أوساط المسلمين أينما انتشروا في العالم، وفي ضوء الحاجة الماسة للجماعة المسلمة إلى الإحياء والإنسياب الحداثويين.... في تلكم الأسس لا نرى مناصاً من ضرورة تكثيف وتسريع الجهود الآيلة إلى مُراجعة وتصحيح الكثير من المفاهيم السائدة في أذهان تلك الجماعة بدءاً من تفسير العالم ومغزى وجود الإنسان

ورسالته فيه، إلى مفهوم الذات والآخر والنظرة إليهما هوية وقيمة حضارية واستدامة علائقية وإنسانية واحتياجاً حيوياً موضوعياً في قلب هذا العصر التعددي والصعب، إلى التاريخ، إلى دور العقل والنقل في المجتمعات السائرة في مُثُل الحداثة والتحديث وركب المتطلبات المتغيرة للزمان ، وصولاً إلى منظّمات شؤون المعيش والإجتماع والسلطة وحقوق الإنسان وأولوياتها ومستقبل الإسلام والمسلمين ودورهم في مستقبل العالم.

بل إننا ندعو بإلحاح إلى الإنخراط في عملية إعادة هندسة للذات وإبداع مفاهيم جديدة واجتهادات مختلفة تقع في قلب العصر، تلهج بأسئلته الجديدة وعليها تجيب ولها تستجيب، فتشكل رافعة حقيقية لاستنهاض إسلامي جديد وانتباهة حضارية جديدة تسترجع المسلمين إلى دورهم الحضاري المفقود الذي يبدو أن العالم لن يكون له مُستقر من دونه.

لقد قطع الغرب من جهته شوطاً متقدماً في مجال ما يسمى بجدلية الفكر والواقع، أو جدلية المثال والواقع كما تصورهما إنطلاقاً من مشروعه الحضاري المادي / رؤيته الحضارية. ولايزال أمام التجربة الإسلامية في الحقل نفسه الكثير الكثير لتفعله، أو لتصلحه، أو لتختبره وليمتاز فيه الزبد مما ينفع الناس، أو لتتجاوزه في إطار جدلية الفكر والواقع تلك، وبما ينسجم ومباديء وقيم المشروع الحضاري الإسلامي ويستجيب لمتطلبات الشخصية الحديثة والذات الحديثة للإنسان المسلم والجماعة المسلمة.

ولعل في بعض أهم شروط تكوينها: الفكر العصري العقلاني الذي يتقمن توظيف المنهج العلمي في الوصول إلى المعرفة، ثم تسييل نتائج المعرفة المتحققة في تدبر مشكلات الحياة كافة.

في تلك الشروط كذلك لزوم الاعتراف بالتنوع الإنساني على كل المستويات وبوجود اختلافات في الرأي، والتكيف الإرادوي مع حقيقة رئيسة قوامها أن في نظام الحياة ومعيش البشر دائماً رأي آخر تقتضي الرسالية الدينية لحظه واحتسابه في كل أنماط حراكها وتوجهاتها، وهي التي أتت وتنزلت لأجل الآخر وهدايته قبل كل شيء.

وإذ نثمن عالياً تلك الجهود النقدية والتصحيحية والترشيدية والإبداعية الاجتهادية التي بذلتها قيادات ومرجعيات دينية وزمنية مسلمة في ميدان المفاهيم المهيمنة على وعي وأفكار وثقافة المسلمين وفي تقريب المسافة بين ما هو كائن فكرياً وثقافياً وسلوكياً بينهم وبين ما ينبغي أن يكون وذلك على مدى القرن الميلادي المنصرم، فإننا نرقب بقلق كبير الإنتكاسات النكوصية أو الجمودية التي استجدت في السنوات الأخيرة على مستوى كثير من المفاهيم الإسلامية التي كنا توهمنا أنها قد تخلصت من أدران التخلف والرسوف السلفي والتذهين الخرافي الأسطوري والإنحراف عن جادة الرسالية. فإذا هي تُسْتَرَدُّ إلى ساح المسلمين من جديد لتدفع في اتجاه إسقاط ما جرى تحقيقه من إيجابيات تصويبية أو الإرتداد عليها، أو إفراغها من مضمونها، أو تبديد مفاعيلها الصحية. لكأنما عاد العالم الإسلامي اليوم في كثير من شؤونه إلى الغرق في متاهة

الفراغ الفكري والإيديولوجي والسياسي التي كان عليها في مرحلة التحرر الوطني التي كان الإسلام مايزال فيها مغيَّباً أو مرهون ظلام وظلم البدائل التغييرية غير المفكر فيها. وليست أمور الأقليات المسلمة في الدياسبورا الإسلامية أفضل حالاً في هذا الجانب مما هي في القلب الإسلامي برغم مما تحفل به من خصوصيات معروفة في هذا الجانب أو ذاك.

ثانياً- الانتفاضة الثانية:

انتفاضة فقهية انقاذية للذات. فبعدما تعينت المؤسسات والمرجعيات الفقهية كإحدى أهم قيادات الإجتماع في الإسلام، بل هي أهمها على الإطلاق، فإنها تضطلع بمسؤولية تسييل مشروعه الحضاري الكوني في شبكة حياة المسلمين وصياغة منظوماتها المعاصرة والحديثة في شتى الميادين والحقول، وهذا ما يسميه الإمام الخميني بـ «تحقيق وتجسيد الفقه العملي للإسلام»[1]، وذلك ابتداءً من العبادات إلى الحراك الفكري والعقدي والقانوني والسياسي والقيمي، إلى الحكومة وإدارة الحياة والعلاقات وتنظيمها وترشيدها.. وصولاً إلى التطورات والإحتياجات المستقبلية والإستراتيجية للأمة[2].

ولا يختلف إثنان اليوم على كون احتياجات المسلمين الحالية الضاغطة متقدمة بما لا يقاس على الجهود المشهودة للحوزات والمرجعيات الدينية والفقهية في العالم الإسلامي، فكيف بالاحتياجات المستقبلية؟. وإذا كان

١ - الخميني، الإمام روح الله - «زبادة الفقه الإسلامي ومتطلبات العصر» - ص /٥٦.
٢ - (م.ن).

من المسلَّم به أن الحياة سبَّاقة لفقهها، بمعنى انها صانعة موضوعات الأحكام، فإن الملاحظ أن المسافة الفاصلة بين الحجم الهائل للموضوعات وقدرة تلبية الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية المتوفرة ومستوى استجابتها لما هو مطلوب منها لاتزال كبيرة بشكل مقلق[1]، بل هي ما فتئت تزداد اتساعاً وتفاقماً.. وهذا عدا ما تقتضي الضرورات مراجعته وضبطه وتقويمه من فقه وفتيا سابقين بَيْدَ أنهما مايزالان ساريي المفعول في أوساط المكلفين المسلمين. وقد كفانا الإمام الخميني مهمة ذكر تلك الموضوعات بالتفصيل (انظر هامشنا الأخير) فيما يشبه البرنامج الفقهي

---

١ - منذ حوالي عشرين عاماً، حدد الإمام الخميني وهو رائد فقهي مجدد فذ، في رسالته الهامة إلى الشيخ محمد علي الأنصاري رؤوس هذه الموضوعات والمسائل الفقهية التي تبرز الحاجة العملية لمتابعة التصدي الإجتهاد عليها معتبراً ان الاجتهاد فيها ليس كافياً، وذلك بإشارات سريعة كالآتي:

«قضية الملكية وحدودها، ومسألة الأراضي وتقسيمها وتوزيعها، وفي الأنفال والثروات العامة، وفي الشؤون المالية والعملات الصعبة والنظام المصرفي وأحكامه ومسائله المعقدة، وفي قضية الضرائب والتجارة الداخلية والخارجية، وفي المزارعة والمضاربة والاجارة والرهن، وفي الحدود والديات، وفي القوانين المدنية، وفي القضايا الثقافية، وفي التعامل بشؤون الفن بمعناه العام كالتصوير والرسم والنحت والموسيقى والمسرح والسينما والخط وغير ذلك، وفي قضية حفظ سلامة البيئة وحفظ موارد الطبيعة... وفي أحكام الأطعمة و الأشربة، وفي تحديد النسل، وفي حل المعضلات الطبية، وفي مسألة الثروات الوطنية في باطن الأرض، وفي تغير موضوعات الحلال والحرام وتوسيع وتضييق بعض الأحكام في الأزمنة والأمكنة المختلفة، وفي المسائل الحقوقية القانونية والقوانين الدولية ومدى تطابقها مع أحكام الإسلام، وفي قضية دور المرأة البناء في المجتمع ودورها الهدام في المجتمعات الفاسدة، ومسألة حدود الحريات الفردية والجماعية، ومجابهة الكفر والشرك والتلفيق، وفي مسائل أداء الفرائض،... وفي الحكومة والمجتمع.. وجميع هذه القضايا هي جزء صغير من آلاف المسائل التي هي مورد ابتلاء الناس والحكومة.. الخ».

(راجع: (م.ن) –ص /٨٣و٨٤و٨٥و٨٦).

الإستراتيجي والمستقبلي. إلا أننا فيما استجد من بعده نقدم بشكل استثنائي وملح الحاجة الماسة إلى حركة انقاذ فقهي تتولى تطهير الفقاهة على مستوى الأصول كما على مستوى الأحكام والفتاوى من ضلالات «العقل التكفيري»[1] والإلتواءات الفقهية التكفيرية ومنهجياتها التي طفت على سطح الظاهرة الصحية لحالة الإستنهاض الحضاري الإسلامي في السنوات القليلة الماضية، وقد انحدرت بإحدى أقدس عبادات الإسلام وهي الجهاد والشهادة في سبيل الله، إلى درجة الإرهاب الحقيقي واستسقاء الدم والإستهانة بالنفس الإنسانية المحترمة وبأرواح الناس وذلك بتشريع القتل العشوائي وتهوين ارتكاب المجازر وتحليلها ضد الأبرياء والعزل والتسبب بتفجير الفتن الداخلية والحروب الأهلية والدينية والمذهبية وإثارة العصبيات التخريبية، فضلاً عن جهل التمييز العقلاني بين العدو والصديق وعن فوضى وعشوائية اختيار الأولويات وخلط الأهداف بالوسائل، ظلماتٌ بعضها فوق بعض، مما ألحق ويلحق - بتمادٍ جنوني - أفدح الأخطار بالإسلام والمسلمين كما بمستقبلهم وبصورتهم وموقعهم الحضاري لدى القاصي والداني.

ولهذه هي أفتك الآفات التي ضربت الإسلام الحديث والمعاصر وشكلت ارتداداً مفجعاً عن مشروعه الكوني الإنساني وتذرعاً لإخراجه من حاضرة العصر والقائه في متاهات التوحش التي ما كان فيها أبداً.

---

١ - هذا المصطلح للسيد حسن نصر الله امين عام حزب الله اللبناني.

وفي رأينا قد لا يكون ثمة أدهى شأناً وأفظع تخريباً لمستقبل الإسلام وأمن الاجتماع الإسلامي والإنساني من ظاهرة التكفيريين الجدد وإمعانهم المريع في استثارة العداء والكراهية والإستهانة بالإسلام وتوفير المبررات والحجج لكيل التهم وبّخ السموم ضد أتم الرسالات الإلهية وخاتمها. وليست الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية في الموضوع الذي عبرت عنه وهو العمليات الإستشهادية، سوى احدى ظواهر تلك الإستثارات السوداء.

وإنه لتحدٍ فقهي وسياسي واستراتيجي أساسي هذا الإبتلاء الطاريء، وهو مطروح برسم المسلمين كافة، يستحث جهودهم المشتركة والموحدة والعناية القصوى لمؤسساتهم الدينية وحوزاتهم العلمية لإحتواء اخطاره وتدارك أو إبطال المقبل والأفدح من نتائجه وتداعياته الداهمة وعلى جميع المستويات.

إن حركة الإنقاذ الفقهي التي ندعو إليها، وفي ضوء التفلتات والاستسهالات الفقهية المستجدة التي قاربت حدود العشوائية والتسيب وانتحال الصفة الفقهية من قبل بعض ذوي النظرة الآحادية من غير أهل العلم والاختصاص والخبرة، ... هذه الحركة الإنقاذية لن تستتم فصولها إلا إذا وضعت نصب اهتماماتها اعادة النظر في البنى الفقهية واعادة تنظيمها على أسس حديثة وعصرية وصارمة من شأنها ضبط حالة التراخي الفقهي أو «القرصنة الفقهية» القائمة وتشديد شروط الأهلية الضرورية للتفقه والإفتاء بحيث يمكن التوفيق والمواءمة بين فتح أبواب

الاجتهاد في الموضوعات والشؤون التي لَمّا تفتح بعد واشراعها حيث هي مفتوحة من جهة، وبين الحزم والتشدد فيما يقرب من «الحصرية الفقهية» المركزة، وذلك بعد مأسستها وتحديثها وتعزيز ديناميات المرونة والانفتاح على قضايا العصر فيها من جهة أخرى.

وإنها لمهمة إضافية بالغة الدقة والحساسية نظراً للصعوبات الذاتية والموضوعية المختلفة التي ستصادفها بحكم الجمود التاريخي وكثرة المهمات المترتبة حيناً، وخطورة العمل ذاته نظراً لانعكاساته وتأثيراته على ضرورة حراك الأمة ووجهتها الحضارية المستقبلية وعلى تصعيب أو تيسير سبل معيشها ونظام حياتها حيناً آخر. ولذلك هي مهمة تَسْتَدِرُّ عقولاً استراتيجية مستنيرة وتخطيطاً حصيفاً وإبداعاً حذراً، وبخاصة على مستوى وضع الآليات الملائمة والقادرة على تحقيق الفعل الإنقاذي المرجو. وفي تقديرنا أن المؤسسات الدينية والحوزات العلمية، إن خَطّطتْ وعَزَمَتْ، بعد تطوير بعض بناها وآليات عملها ووعي طبيعة المهمات المطلوبة، هي القادرة على الإضطلاع بهذه المسؤولية مع كامل التبعات المترتبة، ولو على نحو تدريجي، شرط أن يأتي مدروساً ومؤسساً على رؤية ومنهج مُحكَمَين ومزودين بالكفاءات البشرية.

ثم لا يجوز بعد اليوم، والإستحقاقات على الإسلام والمسلمين داهمة وكَمُّ التحديات عظيم وبطء الإستجابة مزمن، أن لا نقحم احتساب الزمن في حراكنا الفقهي وأداءاته. وإنْ لم نَفعل ولم نَسرق إلى مستوى المسؤولية المترتبة والضاغطة على حياتنا ومعيشنا تأخيراً وإعاقة أو إهمالاً في

استنباط وابداع حاجاتها الفقهية، فإن الزمن نفسه، وهذه سُنَّتُهُ، هو الذي سيقتحم علينا سكونيتنا ليتحول إلى «مُضاد حيوي» لأطروحتنا الحضارية ومشروعنا الاجتماعي الذي نعتبره الأصلح للحياة الإنسانية. وكل تأخير في تحريك قابلياتنا الفقهية وقدراتنا الاستنباطية والاجتهادية سيجعل قدرة الشريعة والتشريع ومهمتهما في إدارة حياة الناس وتسهيلها أكثر صعوبة وممانعة لأي استنهاض أو اصلاح أو تدبر.

ويبدو أن حساب الزمن، بما هو سلاح ذو حدين كما يقال، قد أضحى شريكاً في تقرير الصيرورة الحضارية لبني البشر، لا مجرد متدخل أومفاعل فيزيائي إنه... من السوسيولوجيا السياسية يصرف وينفق ومن المعادلات العلائقية يغتذي. أما بما هو الحداثة والعصرنة فسيكون مأساوياً، ونحن في مستهل القرن الواحد والعشرين، أن يأتي من يبشرنا أننا توصلنا أخيراً في سباقنا الفقهي إلى إنجاز قوامه: اعتبار دية المرأة معادلة لدية الرجل!.. إن عقلنا التاريخي لهو حقاً في محنة... وأمامه امتحان عسير ليته لا يصاب فيه بالخذلان.

أما لجهة إبتلاء الثقوب المذهبية بين المسلمين، وقد استثيرت عصبياتها الغرائزية والغرائبية إلى حدود خطرة وانحدرت إلى خطاب مذهبي أخطر في السنين الأخيرة، فلا بد من جهود أكبر وأكثر زخماً تبذل على مستوى التقريب بين المذاهب الإسلامية، تعزيزاً وتفعيلاً واستقطاباً، وبخاصة في أوساط عامة المسلمين وأوساطهم الشعبية لما لهذا الأمر من جدوى وتأثير في تهدئة العصبيات وتبريد الاحتقانات المذهبية والفئوية بين ظهراني تلك

الأوساط. فالتقريب بين المذاهب، كما فلسفته وأهدافه ووظيفته، وكما يعرف ذلك حكماؤه والعاملون له، لا ينبغي له الاكتفاء بالتسرب البطيء من بين أصابع النخب الدينية وحدها، وإنما يجب فتح جميع الأيدي والهمم لتتدفق تقريباته وانجازاته المستنتمة في عروق الأمة كلها وفي أنساقها التوحيدية وفي وعي وتصور المسلم للمسلم بأعجل السبل وأنجعها. وقبل ذلك وبَعْدَهُ: تسييل «أوكسجين» الإسلام النقي والحقيقي في تلك العروق التي أصابت الإحن التاريخية بعضها بالإنسداد أو التصلب. وبذلك تستوي عملية الإنقاذ الفقهي في مسارها الطبيعي مما سيكون له أعمق الأثر في الارتقاء بموقع الإسلام والمسلمين إلى مستوى أفضل وإلى اجتماع تقاربي أكثر تماسكاً وأوثق رسوخاً بعد كل هذا التجافي والتنائي المحتقنين اللذين نشهد بعض فواجعهما في الكثير من أقطار العالم الإسلامي يخشى من تمدد ابتلاءاتهما إلى مجتمعات أخرى.

إن عملية الإنقاذ الفقهي هذه بمفاعيلها التطهيرية والتأسيسية والإحيائية، وهي تخطو نحو إعادة تأهيل التعاطي الديني بحياة المسلمين المعاصرة كما بحياة غير المسلمين في عصر الثورة الرقمية والفضائيات ومقاربتها بمنهجية مختلفة وأكثر تطوراً ودينامية هذه العملية، من شأنها أن تجعل الفقه الحداتوي بالنمط المنوه به أكثر تفاعلاً وتفهماً لظروف وحاجات الأقليات المسلمة في غير ديار المسلمين، ومن شأنها أيضاً أن تجعل إيمانهم الديني أعمق وثقتهم بما يؤمنون به أقوى وأشد. وإنَّ ذلك لذو فضل عظيم على تسهيل سبل ممارسة العبادات الناشئة عن هذا

الإيمان والعمل بموجب شريعته وقوانينه. فما أريد للإسلام إلا أن يكون دين اليسرة والمرونة والتكيف الذكي مع تغيرات وتحولات الأزمنة والأمكنة والصيرورة البشرية من غير ما انتقاص من تكليفاته أو تجاوز على حلاله وحرامه، أو إفراط أو تفريط فيهما.

ومن هذا الباب تدلف الدعوة المستحقة لما يسمى بـ «فقه الهجرة» الذي كنا قد نوهنا بإيجابياته سابقاً، إذا قيض له أن يشق طريقه إلى الظهور والتبلور والنجاح في التعاطي بالحاجات والقضايا الخاصة بمجتمعات الهجرة، على أن ينأى عن التناقضات في استنباط الأحكام والفتيا، فلا يحلل فقيه في الأساسيات والأصول، كما الفروع منها، ما يحرمه فقيه آخر فيصيب المهاجرين المسلمين من اضطرابه وتعارضه ما أصاب مسلمي الأندلس بعد استردادها من قبل جيوش الاسترداد النصرانية، إذ أفتى بعض فقهاء ذلك الزمان بخروج من تبقى منهم إلى بلاد المسلمين حتى لا يخضعوا لسلطان إسباني غير مسلم، بينما أفتى فقهاء آخرون ببقائهم في بلادهم (الأندلس).. فكان لهذا التناقض أسوأ الأثر على مستقبل الوجود الإسلامي في ذلك الفردوس المفقود الذي ما عاد «مفقوداً».

ثالثاً- أما الإنتفاضة الثالثة فهي انتفاضة سياسية، إذ لا يمكن لأزمة الهوية الثقافية التي يعاني منها المسلمون في شتى بقاع الدنيا، إلا أن تنتج تعدداً في قراءاتهم للمشروع الحضاري الإسلامي وللدور السياسي والإستنهاضي للدين الإسلامي الذي بات حاضراً موضوعياً وبقوة في

الساحتين الإسلامية والدولية كخيار ايديولوجي وسياسي تغييري واستراتيجي، بعدما تراجع أو انحسر دور الخيارات الايديولوجية والحضارية الأخرى التي كانت سائدة في مراحل التحرر الوطني من الوجود الإستعماري. ولات هذا التعدد ظل في إطار التنوع الصحي الإحيائي الذي حفلت به المجتمعات الإسلامية في بعض المراحل النهضوية، لكنه في واقع الحال تحول إلى مفاعل تناحري بعدما تم حرفُه والدفع به إلى درك التنازع المذهبي والفئوي حتى كاد يذهب بريح المسلمين ويأتي عليها. وقد وصل هذا التنازع بهم إلى حد الإلتهاء والتوهان عن أخطر الخبائث السياسية التي تتناهشهم وهي تسيد الدكتاتورية وتأبيد الأنظمة السياسية السلطانية في بلدانهم، وهما عنوانان رمزيان لغياب العقل الجمعي النقدي والرقابي، وتعطيل الشعور بالمسؤولية الإجتماعية، والارتخاء في سكونية العقل والوجدان الماضويين، وتحييد أو تعقيم قوة الحراك الجمعي الإيجابي للأمة، مما كان له أرسخ الآثار في إعاقة اطلاق وتحرير الديناميات السياسية والاجتماعية والثقافية والتنموية الإصلاحية والتغييرية بين ظهرانيها، وتحويل عوامل التجزئة والقطرية والطوائفية فيها من التمدد الأفقي السطحي والميسور المعالجة، إلى حالة انشطار عمودي، دون الوصول إلى بُرْء كسورِه خرْط القَتَاد. فإذا أهل الامة وجماعاتها يُتخطفون بالمفرق بعدما عزت جملتهم ووحدتهم وتفككت شرٌّ مفكك.

إن الإستمرار في تأجيل الإستحقاق الديمقراطي وتداول لسلطة، أو تأخيره، أو التهرب منه والمناورة عليه والامعان في مصادرة الإرادة

الشعبية، داخل الإجتماع السياسي في العالم الإسلامي هُوَ عندنا العائق الرئيس في وجه انطلاق الحراك الإسلامي الأممي في مسار الإصلاح الشامل للذات وتوفير شروط الممانعة والمواجهة وتزكية عوامل التوحد وأواصره في صفوف الأمة وهي الكافية والقمينة، إذا اكتملت وتكاملت، بإلحاق الهزيمة المحققة بالمشروع الأمبريالي المتحالف مع الصهيونية العالمية والساعي إلى الهيمنة والتسلط، لا على العالم الإسلامي وحده، وإنما على العالم كله، وهي التي الكفيل بإزالة جميع مفاعيله وتداعياته. ولنتصور بعد ذلك أي تحول إيجابي سيتحقق على مستوى الأوضاع الذاتية والموضوعية للأقليات المسلمة المتشظية في أربع جهات المعمورة، وبخاصة أنها تحمل في وجدانها وذاكرتها ومكوناتها الثقافية هموم وشجون بلدانها الأم وهي واسطة استهدافات ذيّاك المشروع الطاغوتي الممعن في ملء العالم عَسفاً وجوراً.

وليس المقصود ها هنا أن تنتظر تلك الأقليات تفريج كرب أزمتها عن طريق تحقق الانتفاضة السياسية على الذات داخل العالم الإسلامي، وإنما المقصود هو الانعكاسات والتداعيات الإيجابية لمفاعيل الإصلاح السياسي الديمقراطي في بلدان بيضة الإسلام على أوضاع المسلمين الآخرين أينما حلوا. إذ يبقى من الضرورة بمكان أن تبادر الجماعات المسلمة من جهتها إلى الانخراط الكامل في الحياة السياسية في ارض الشتات محققة بنفسها انتفاضتها السياسية الخاصة بها من قلب خصوصيات تجربة كل منها، لا أن تبقى على أطراف الحراك السياسي أو الهوامش السياسية للمجتمعات

التي تحتضنها كما الحال اليوم في أكثر تلك المجتمعات.

وإننا لنرى بالمقابل أن نجاح نماذج هذا النمط من الاندماج السياسي والحضاري للأقليات المسلمة في الأقطار غير الإسلامية، هو بدوره أيضاً ذو انعكاسات وتداعيات ايجابية على أوضاع الإجتماع السياسي في قلب العالم الإسلامي نفسه. فأي تقدم يتحقق على مستوى الإصلاح السياسي لشؤون المسلمين في العالم، مفضٍ موضوعياً وبالضرورة إلى انتاج اصداء له وتفاعلات.. داخل أجزاء شتاتهم أينما كانوا. والعكس صحيح أيضاً وذلك في حراك جدلي يخرج من الكل إلى الجزء، ويؤوب من الجزء إلى الكل في قرار وجواب. ولعل المسلمين في العالم هم في مسيس الحاجة إلى هذا النوع من الحراك السياسي الجدلي في عملية إغناء وإحياء متبادلين للتجربة السياسية الخاصة لكل منهما وتأثيراتها المفيدة على مشتركاتهما ومصالحهما السياسية التي لا نراها إلا واحدة. وفي ذلك خير عميم وخطوات إيجابية تتحقق على مستوى تفعيل تجربة المسلمين الحضارية وتخصيبها بمصبات التعدد المختلفة وتنوع المصادر والمشارب الثقافية والاجتماعية، وبالتالي التعجيل في انضاج نماذجهم الحضارية في شتى الاختصاصات والحقول. وهذا باب آخر من أبواب التحدي التي لطالما كانت ترتج عليهم فيعيون عن تقديها والإقناع أو المنافسة الحضارية بها. فللآخرين نماذجهم الحضارية الناجزة في جميع المجالات، ولو أنها لا تدعي الكمال والاكتفاء، بينما لم يستطع منافسوهم الحضاريون بعد تقديم نماذج مغايرة أكثر نجاحاً وأقدر على الإقناع بكونها البديل الأصلح.

في السياق نفسه نشير إلى أننا من جهتنا نراهن كثيراً على هذا النمط من التبادل والتفاعل الحضاريين بين التجربتين الإسلامية والغربية بالرغم مما عرفته حتى الآن من انتكاسات وخيبات، فهي في رأينا فرصة حضارية ثرّة بالفوائد، لا للتعارف بين الطرفين بكل ما يحمله التعارف من عِبَر ودلالات فحسب[1]، بل وربما أيضاً لإنتاج نموذج علائقي حضاري اختياري جديد ومختلف تنجبه عملية التلاقح والتعايش والاستكنان الموضوعي في الآخر القائمة حالياً. وهي وإن جاءت متوجسة وقسرية وإجبارية وإلزامية ولا غنى عنها في آن، إلا أننا نرى في تضاعيفها أنها تختزن منافع جمة يمكن لها أن تفضي في المستقبل إلى محصلات ونتائج متفردة في شتى الحقول، فيحمل النموذج الحضاري الوليد ملامح وسمات المشتركان في النسقين الحضاريين الإلهي والمادي اللذين لطالما كان بينهما أحواز من التفاعل المشترك من خلف ظهر السياسي تارة ومن خلاله تارة أخرى، فالمشروعان الحضاريان هذان ليسا فضاءين متناقضين كلياً، وعلى ما فيهما وبينهما من تقاطعات وقواسم مشتركة تقوم نقاط الارتكاز في التفاعل الذي لا مناص من حدونه. وذلك سنة تاريخية واجتماعية مشهودة في العلاقات بين المشروعين الحضاريين المتدافعين أبداً. وإنها لتجربة حريٌ بها أن تُخاض بتفكر وامعان تأمل واختبار عن كثب، فما

---

١ - التعارف المقصود هنا هو التعارف القرآني بمقوماته ودلالاته التي تختزنها الآية الكريمة المذكورة سابقاً: «يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم...» - الحجرات /١٣.

حدث في الأعصر الحديثة أن توفرت فرصة تماس وتداخل من هذا النوع المترع بالأسئلة بين المشروعين، وقد يكون مدهشاً وحافلاً بالمفاجآت والإجابات من كل حدب وصوب.

****

خارج تِلكُمُ الانتفاضات الثلاث على الذات بامتداداتها الإصلاحية والواقعية والممكنة داخل العالم الإسلامي وعلى مدى انتشار دياسبورا الأقليات المسلمة، لن يُتاح لمسلمي العالم ومشروعهم الحضاري المتجسد برسالية دينهم أن يتحولوا إلى مكون أساسي في قرار وبناء مستقبل البشرية، كما لن يقيض لهم أن يكونوا شركاء مؤثرين في تحديد توجهاتها وصيرورتها ومصيرها، وإلا ظلوا – كما تكاد أحوالهم تستقر اليوم – مجرد كم ديموغرافي ضخم يتألف من مليار ونصف المليار من الآدميين المغلوبين الذين يملكون بقيود «وَرَقِيّة» ثروات استراتيجية هائلة، يطأها ويهيمن عليها خصومهم الحضاريون، بينما هم هائمون عن أنفسهم وعليها في بيداء التخلف والفقر والقصور، يقتلهم فيها الظمأ والماء فوق ظهورهم محمول، يُدفعون ويندفعون إلى متاهات وكمائن حضارية واستراتيجية وسياسية هيأها اللاعبون الغالبون بإتقان تبعاً لمصالحهم الحيوية وغير الحيوية التي أعدوا وتجهزوا لها بأمنع وأفعل أدوات السطوة والتسلط، وذلك بعدما تمكنوا من تحقيق مدنية ارتقت بهم إلى سدة التسيد العلمي والفكري والتكنولوجي والإقتصادي. إضافة إلى سيطرتهم السياسية ومن خلالها كافة وفروا لشعوبهم «المصطفاة» أحدث مستويات الرغد

والرفاهية بعدما استحوذوا على ٨٠٪ من ثروات العالم وهم لا يشكلون من ديموغرافيته سوى خمسها، لكنهم – بالمقابل – أوردوا مستضعفي الأرض موارد التهلكة فما تركوا على جنبات احتياجاتهم إلا الخسائر والإبتلاءات والضحايا والجراحات المفتوحة في مختلف الميادين، لكنهم لا يبدو أن بعض تلك الجراحات قابل للإلتئام والإندمال.

بمنظار الواقع العلائقي بين العالم الإسلامي والغرب الإيديولوجي والسياسي – والرسوم الكاريكاتورية الدانمركية تفسر ذلك الواقع أيما تفسير – لا تبدو صورة المستقبل القريب مبشرة وتفاؤلية، غير أننا على المستقبل العلائقي نراهن...

والمستقبل يبدأ الآن،

وكذلك ما ستكون عليه الذات وكل علاقة بالآخر.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: باللغة العربية والمعرَّب:

١- بوبر، كارل – في: «التسامح بين شرق وغرب»- دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢.

٢- بوليت، ريتشارد: «دفاعاً عن مقولة الحضارة الإسلامية - المسيحية» - الترجمة العربية – دار النهار ومنشورات جامعة البلمند، بيروت ٢٠٠٥.

٣- حرب، علي: - جريدة «السفير» - بيروت، ٢٠٠٦/٢/٢٣.

٤- الحمص، سليم: - جريدة «السفير» - بيروت، ٢٠٠٦/٣/٢١.

٥- حنفي، حسن: «ماذا يعني علم الاستغراب؟» - دار الهادي، بيروت ط٢، ٢٠٠٥.

٦- الخميني «ريادة الفقه الإسلامي ومتطلبات العصر»- دار الهادي – بيروت ١٩٩٢.

٧- رمضان، طارق: - جريدة «السفير» - بيروت، ٢٠٠٤/١٠/٢٣.

٨- سعيد، إدوارد: «الثقافة الامبريالية» دار الآداب، بيروت، ط٣ ، ٢٠٠٤.

٩- السماك، محمد: - جريدة «السفير» - بيروت، ٢٠٠٦/٣/٣١.

١٠- شريعتي، علي: «النباهة والاستحمار» - مؤسسة الهدى، طهران، ١٩٩١.

١١- الطباطبائي، السيد محمد حسين: «الميزان في تفسير القرآن» المجلدان: ١٤و١٥.

١٢- الغزالي، الإمام أبو حامد: «الرد الجميل لإلهية عيسى بصحيح الإنجيل» - دار البراق، باريس، (د.ت).

١٣- فرنكلستين، نورمن: «صناعة الهولوكوست» - دار الآداب، بيروت ٢٠٠١.

١٤- فوكو، ميشال: «يجب الدفاع عن المجتمع» - دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٣.

١٥- فوكوياما، فرنسيس: «نهاية التاريخ» - مركز الإنماء القومي، بيروت ١٩٩٣.

١٦- فوكوياما، فرنسيس: -جريدة «السفير» - بيروت ٢٠٠٦/٢/٢٤.

١٧- كاغان، روبرت: - جريدة «السفير» - بيروت ٢٠٠٣/٣/١٧.

١٨- لويس، برنارد: - جريدة «السفير» - بيروت ٢٠٠٤/٧/٣١.

١٩- المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق: «قراءات أميركية

وإسرائيلية للشرق الأوسط في القرن المقبل» - بيروت.

٢٠- المطهري، مرتضى - «أحياء الفكر في الإسلام» - دار التيار الجديد، بيروت ١٩٨٦.

٢١- نصر الله، السيد حسن «جريدة السفير» - بيروت ٢٠٠٦/٤/٢٧.

٢٢- نيلسن، يورغن: «المسلمون في أوروبا» - دار الساقي ، بيروت ٢٠٠٥.

٢٣- هاجر، محمد يوسف: في «الأقليات المسلمة في العالم» - جـ/٢ - مؤسسة الهدى، طهران ٢٠٠١.

٢٤- هاغمن، لودفيغ: «مسيحية ضد الإسلام - حوار انتهى الى الاخفاق» - قدمس للنشر والتوزيع - ط/٢، بيروت ٢٠٠٥.

٢٥- هانتنغتون، صامويل: «صدام الحضارات» - مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق - بيروت ١٩٩٥.

ثانياً: بالفرنسية:

26- Boltanski, Christophe - «Libération» - Paris, 6 Février 2006.

27- Borillo, Daniel - «Le Mode» - Paris, 9 Février 2006.

28- Etienne, Bruno - «L'Islam radical» - Hachette, Paris 1985.

29- Fukuyama, Françis - «State building» - La Table Ronde, Paris, 2004.

30- Gresh, Alain - «Le Monde Diplomatique» - Manière de voir – N° 46 (Juillet – Août 2002).

31- Huntington, Samuel P. - «Qui Sommes – nous ?» - Odile Jacob, Paris, 2004.

32- Kagan, Robert - «le puissance et la faiblesse» - Plon, Paris, 2003.

33- Kepel, Gilles - «le Point» - Paris, N°24, 2002.

34- Kovacks, Stéphane - «Le Figaro» - Paris, 2 Février 2006.

35- «L'Humanité» - Paris, 11 Février 2006.

36- Le pen, Jean – Marie - «Le Monde» - Paris, 4 Eévrier,2006.

37- Lewis, Bernard - «Les Assassins» - Berger – Levraut, Paris, 1982.

38- Lewis, Bernard - «Le retour de l'Islam» - Gallimard, Paris, 1985.

39- Mallay, Robert- «Le Monde» - Paris, 23/24 Décembre, 2001.

40- Michel, Louis - «L'Express», Paris, Juin 2004.

41- Roy, Olivier - «La laïcité face à l'Islam» - Stock, Paris, 2005.

42- Roy, Olivier - «Le Monde» - Paris, 8 Février 2006.

43- Ramadan, Tariq - «Libération» - Paris, 8 Février 2006.

44- Todd, Emmanuel - «Le destin de immigrés» - Seuil, Paris, 2002.

45- Ziegler, Jean - «L'empire de la honte» - Fayard, Paris, 2005.